

عَلِيٌّ بْنُ الْحُسَيْنِ طَالِ التَّوْبَتَا

الخليفة المفترى عليه



أ. د. عَبْدُ الْحَلِيمِ عَوْلَسِي

عليّ بن أبي طالب عليه السلام

ال خليفة المفترى عليه

أ.د / عبد الحليم عويس
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

وبين يدي الخليفة الرابع.. أمير المؤمنين.. الفارس العادل الشجاع الزاهد... نسوق هذه الصفحات.. لنقول فيها
كلمة حق.. تبدد الغيوم التي صنعها أصدقاؤه وأعداؤه معاً... ورحم الله علي بن أبي طالب... المفترى عليه في حياته
وبعد وفاته...

ورضي الله عن أم المؤمنين عائشة... وعن طلحة والزبير... ورضي الله عن صحابة رسول الله ﷺ أجمعين...

{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}

(الأحزاب: ٢٣) صدق الله العظيم



المؤلف

توطئة

علي... المفتري عليه

علي بن أبي طالب، العالم.. الفقيه.. الشجاع.. التقي.. النقي.. الورع.. ربيب بيت النبوة والتلميذ النجيب الناجح المتخرج من بيت النبوة.. نموذج كريم تربي في أحضان المدرسة المحمدية.. أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً... يذكر له التاريخ بكل فخر السبق في الإسلام؛ فهو أول فتى يدخل في الإسلام، ويؤمن بمحمد ﷺ فاستحق أن يكون أحد العشرة المبشرين بالجنة.. ومثل علي في ذلك أخوة له.. على الدرب نفسه، سبقوه في شيء.. وسبقهم في شيء.. والعظمة حظوظ.. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.. فكانت السلسلة الذهبية بعد نور النبوة العظيم.. أبو بكر وعمر وعثمان.. ثم جاء علي فختمت به الحلقة..

لكن علياً ﷺ شأنه شأن عثمان.. امتطى اسمه الكريم ناس مغرضون ذوو مآرب.. على رأسهم إمام الباطنية عبد الله بن سبأ.. الذي خلف من بعده مدرسة ضالة.. شوهدت جمال التاريخ الإسلامي.. وأضاعت الصلاة واتبعت الشهوات.. وجعلت علياً.. حاشاه.. وكأنه مكمل للنبوة.. فكأن النبوة لم تكتمل قبله، وكأن الله لم ينزل في كتابه الكريم {اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} ^(١)... بل إن بعضهم لتلمح في كتاباته وكأنه يوقر علياً ويجله ويشعر بالهيبه أمام اسمه.. فتحس وكأنه يفضل على إمام الإنسانية محمد.. عليه أفضل الصلاة والسلام، فضلاً عن تصريحهم وإفكهم في التقليل من شأن الراشدين الذين سبقوه.



(١) المائدة: ٣.

وليس عليّ بدعاً في التاريخ.. في هذا الشأن.. فكم من جماعة تاجرت بإنسان.. ورفعتة بعد موته.. بينما كانت حال حياته سبب بلائه ونكبته.. وإلا فمن أسلم الحسين للقتل؟^(١).

لكن عليّاً ملك للإسلام وللتاريخ الإسلامي وأبناءؤه جميعاً وكل المسلمين الصادقين إنما هم شيعة للقرآن والسنة... بالدرجة الأولى... ثم لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي بهذا الترتيب ، وليس ثمة مسلم صادق يستطيع أن يتنكر ليد على في الإسلام.. ولناقبه.. أو لجهاده.. أيام الرسول ﷺ وبعده...

والمسلمون . كل المسلمين . بالرغم من اختلافهم في رؤية دور بني أمية أو في تقدير شخص معاوية ويزيد بخاصة يكونون تقديراً خاصاً... ولوناً من الحب لشخصية على ولأبنائه... وليس مبعث ذلك الشعور أنه وقع عليهم نوع من الظلم في قضية توليتهم الخلافة.. فأمر ذلك للمسلمين جميعاً.. وليست الشعوب والأمم ميراثاً تنقل ملكيته.. ثم إن الذين تولوها سواء أبو بكر أو عمر أو عثمان.. أو معاوية.. هم مسلمون لهم حق الترشيح لهذا المنصب وتتوافر فيهم كل شروطه.. وما يؤخذ على معاوية لا يؤخذ عليه من هذا الجانب..

^(١) لقد أرسل أهل الكوفة غداة وفاة الخليفة معاوية بن أبي سفيان إلى الحسين بن علي يبايعونه بالخلافة، ويعدونه النصرة والمساعدة، فامتنع الحسين عن بيعة يزيد بن معاوية، ورحل إلى مكة؛ خشية أن يُكره على المبايعة ليزيد. ولم يكذ الحسين يصل إلى مكة حتى اتصل به أهلها وجعلوا يترددون عليه ويجمعون عنده، كما تتابعت رسائل الكوفيين إليه يسألونه القدوم عليهم ليسلموا الأمر إليه ويطردوا النعمان بن بشير عامل الأمويين على الكوفة.

فأرسل الحسين إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ليستوثق من إخلاصهم له وصدق إيمانهم بحقه في الخلافة، قبل أن يقدم عليهم بنفسه، وقد بايع للحسين من أهالي الكوفة ثمانية عشر ألفاً على يد مسلم بن عقيل الذي أرسل إلى الحسين يسأله القدوم إلى الكوفة. ونتيجة تحاذل النعمان بن بشير والي الكوفة عن مقاومة هذا التمرد وذلك الإقبال المتزايد على مبايعة الحسين، قام يزيد بن معاوية بعزله، وعهد بالكوفة إلى عبد الله بن زياد عامله على البصرة، فجمع بذلك بين الولايتين.

وقد نجح عبد الله بن زياد . رجل الأمويين المخلص . في القبض على مسلم بن عقيل وقتله وإرهاب كل من مال إلى دعوته من الكوفيين وتخويفهم عاقبة التمرد والعصيان، والواقع أن قلوب هؤلاء كانت مع الحسين وسيوفهم مع بني أمية.

ولم يذعن الحسين لنصيحة عبد الله بن عباس الذي حاول أن يثنيه عن الخروج إلى الكوفة؛ إشفافاً عليه وخوفاً من أن يخذله الكوفيون كما خذلوا أباه من قبل بعد أن بذلوا له عهد الولاء ومواثيق النصرة.

وفي التاسع من المحرم سنة (٦١هـ) التقى الحسين في نفر قليل من آل بيته وأصحابه لا يزيدون على مائة بقوات الأمويين في كربلاء، وفي معركة غير متكافئة قتل الحسين بعد أن أباد الأمويون عصبته الصغيرة، واحتزوا رءوسهم وحملت على أطراف الرماح. وذلك دون أن يبذل أهالي الكوفة الذين زعموا انتصارهم لآل البيت ورفعوا شعار أحقيتهم بالخلافة وزينوا للحسين الخروج إليهم أدنى جهد لحماية الحسين من المصير المؤلم المأساوي الذي آل إليه.

انظر في مقتل الحسين بن علي - ﷺ - المسعودي: مروج الذهب ٦٤/٣، وما بعدها، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٧/٤، وما بعدها، د/ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص: ٣٧٦، وما بعدها.

إنما الحب الذي انساب في دماء المسلمين لأسرة على.. هو جزء من الحب المنساب في الأمة لرسولها الكريم . بالدرجة الأولى . ثم هو حب أذكته الطريقة التي استشهد بها بعض أبناء البيت النبوي، وكانت طريقة مأساوية جرحت العاطفة الإسلامية... مهما اختلف البعض في الأسباب وفي قضية الخلاف الأساسي!..

فلماذا إذن يا ترى.. يريد بعض المغرضين تقسيم الأمة الإسلامية.. على أساس أن هناك شيعة لعلی وشيعة لغيره... مع أن كل السلف وجميع المنتمين إلى مذهب أهل السنة والجماعة إنما هم شيعة لهذا الجيل كله.. والقرآن والسنة.. وهل جاء علي بشيء تكملة أو إضافة للإسلام.. فيتحيز له البعض ويقال للآخرين: لستم شيعة؟... ويا ترى... لماذا لا تكون هناك شيعة لأبي بكر... ولعمر... ولأبي ذر... وللشافعي... ومالك... وللحسن البصري.. وهكذا ينقسم المسلمون شيعاً وأحزاباً؟..

وقد أسفنا كل الأسف لكاتب كتب كتاباً ملاًه قيحاً وصديداً من عفن فكره... حيث قسم الإسلام نفسه.. إلى قسمين: إسلام شيعي.. وإسلام لا شيعي، ثم أجهد نفسه ليثبت أن الإسلام الشيعي أصل وأكد وأقدم.. ونحن نسأل هذا الكاتب وأمثاله: ترى أي إسلام نزل على محمد ﷺ.. أي إسلام جاء في القرآن ووضحته السنة القولية والفعلية والتقريرية؟..

إننا - مخلصين - نريد هذا الإسلام وكفى، والذي قال فيه ربنا عز وجل: "ورضيت لكم الإسلام ديناً". إن علياً عليه السلام له موقعه العظيم من فكرنا ونفوسنا.. وفي داخلنا... وفي تاريخنا... وهو بموقعه ذلك في غنى عن أن تلفق له الأخبار... وتحشد لتاريخه وعلى لسانه - حاشاه - الأكاذيب بل والتنبؤات التي لا يعلمها إلا الله.... إنه أول من أسلم من الصبيان... وقد تربى في حضن الرسول ﷺ... وشهد المشاهد كلها - عدا تبوك - وقضى على صناديد الشرك، وتميز بشجاعة فائقة.. وكان زاهداً عالماً.. وكان خاتم الراشدين الأربعة... واستأهل أن يتزوج بفاطمة.. وأن يؤاخيهِ الرسول ﷺ... فهل يحتاج إلى مجد يُنتحل له؟.. رضي الله عن علي... وحرس تاريخه من أصدقائه قبل أعدائه...

(والله من وراء القصد)

د/ عبد الحليم عويس



في بيت النبوة

في بيت النبوة نشأ وترعرع علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف، ﷺ وكرم وجهه... أجل... فإن علياً الذي ولد في السنة الثانية والثلاثين من مولد رسول الله ﷺ لم يكد يقترب من سن البلوغ حتى وجد نفسه في بيت ابن عمه نبي الإسلام ﷺ وخاتم المرسلين.

ففي ظلال محمد ﷺ استروح عليّ نسيمات الحياة الأولى، حيث وجد في محمد عليه الصلاة والسلام حنان الأبوة وأخلاق النبوة، وأحس بأن قدره قد ساقه إلى خير ما تسوق إليه الأقدار إنساناً في حاضره، كما أنها قد ساقته إلى شيء كبير من هذا الخير حين جعلته يتفرع من هذه الدوحة الهاشمية الكريمة في ماضيه...

وبين الماضي الكريم الممتد من أبي طالب وعبد المطلب، والذي يلتقي مع محمد في جده الأول من ناحية الأب بينما يلتقي معه من ناحية أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف في جده الثاني...

بين هذا الماضي المؤثر العريق وبين الحاضر المكثف بظلال البيت النبوي عاش على سنوات عمره الأولى.. رفيقاً لمحمد ﷺ.. وابناً... ثم مستشاراً.. وصديقاً.. وقريباً إلى قلبه وفكره أكثر ما يكون القرب..



لقد ثقلت أعباء الحياة بأبي بطالب وشعر الذين حوله من عشيرته بما يكابده.. فهرعوا بأريحية العربي الكريم إليه يشاطرونه همومه وأعباءه..

لقد كان أبو طالب رجلاً كثير الأولاد محدود الإمكانيات... ولما أصاب القحط قريشاً أهاب الرسول ﷺ بعميه حمزة والعباس أن يحملوا عن أبي طالب شيئاً من أثقاله في تلك الأزمة.. فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفرًا، وأخذ النبي (عليه الصلاة والسلام) عليًا، أما آخرهم وهو عقيل فقد استبقاه أبو طالب لنفسه لميله إليه وولعه به..

قال ابن إسحاق: كان من نعمة الله على علي بن أبي طالب، ومما صنع الله له وأراد به من الخير أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة، فقال رسول الله ﷺ لعمه العباس وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بن إليه، فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بني رجلاً، وتأخذ أنت رجلاً فنكلهما عنه"، فقال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما. فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمه إليه وأخذ العباس جعفرًا فضمه إليه، فلم يزل علي مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبياً، فاتبعه علي وآمن به وصدقته، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه^(١).

وبالرغم من حداثة سنه على ما في هذه السن من قصور عقلي وعدم إدراك فقد أدرك علي بن أبي طالب من شئون الدعوة المحمدية ما يعجز عن فهمه وإدراكه أقرانه ولدائه.

(١) انظر: سيرة ابن هشام ١/١٧٨.

وقد نشأ ﷺ قوي البنيان وبدت عليه ملامح الرجولة في سن مبكرة، يصفه معاصروه بأنه: "ربعه . ليس بالطويل ولا بالقصير . آدم . أسمر . شديد الأدمة، أصلع، مبيض الرأس، ثقیل العينين في دعج وسعة (سعة العين مع سوادها)، حسن الوجه، واضح البشاشة، أغيد كأنما عنقه إبريق فضة، عريض المنكبين لا يتبين عضده من ساعده قد أدججت إدماجاً.. يميل إلى السمنة في غير إفراط، ضخم الذراع والساق، يتكفأ في مشيته على نحو يقارب مشية النبي ﷺ.

وعن الشعبي قال: رأيت علياً وكان عريض اللحية، وقد أخذت ما بين منكبيه، أصلع على رأسه زغيبات. ولقوته لم يكن يحفل بشتاء ولا صيف؛ بل كان يلبس ملابس الشتاء في الصيف وملابس الصيف في الشتاء، وسئل عن ذلك فقال: "إن رسول الله ﷺ بعث إلي وأنا أرمد العين يوم خير، فقلت: يا رسول الله إني أرمد العين، فقال: اللهم أذهب عنه الحر والبرد. فما وجدت حرّاً ولا برداً منذ يومئذ.

وعن أبي الوضيء القيسي قال: ربما رأيت علياً يخطبنا وعليه إزار ورداء مرتدياً به غير ملتحف، وعمامة فينظر إلى شعر صدره وبطنه (١).

ولا يفهم من ذلك . كما يقول الأستاذ العقاد . أنه رضوان الله عليه كان معدوم الحس بالحر والبرد؛ فقد كان يرد بالبرد؛ إذا اشتد ولم يتخذ له عدة من دثار يقيه، وقد جاءت الأخبار بما يدل على تمتعه بقوة جسدية غير عادية، ومن أخباره أنه ربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل، وإذا أمسك بذراع الرجل فكأنما أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس، وقد اشتهر عنه أنه لم يصارع أحداً إلا صرعه ولم يبارز أحداً إلا قتله (٢).

والبيت النبوي منشؤه ونسبه

فالأصل الكريم محتده وحسبه

وقوة الذاكرة والجسم من خصائصه الفطرية ﷺ.



(١) راجع في صفة علي بن أبي طالب، طبقات بن سعد ٢٣/٣ . ٢٥ .

(٢) انظر: عباس محمود العقاد: عبقرية الإمام، ص: ٨ .

أول المسلمين

مع بداية الأيام الأولى للإسلام.. سارع ثلاثة نفر في بيت النبوة إلى الإسلام دون حاجة من فكر أو تردد في رأي: السيدة الفاضلة والزوجة الصالحة وأم المؤمنين خديجة بنت خويلد من النساء، وعلي من الصبيان، وزيد بن حارثة مولى الرسول ﷺ كأول عبد اعتنق الدين الجديد... وبهذه الخطوة تحول البيت النبوية الكريم إلى الإسلام وتكونت الخلية الأولى في البناء الإسلامي الجديد^(١).

وهنا لمحة لا يجوز أن تغيب عنا؛ فإن من المعروف بداية أن أعرف الناس بالإنسان هم أهله، وأنه إذا استطاع إنسان أن يخدع كل الناس فمن الصعب أن يخدع أقرب الناس إليه وأعرفهم به، ولقد قيل بحق: إن كل عظيم هو شيء عادي في بيته ومع زوجه وأهله، فالعظيم حينما يدخل بيته فإنما يدع وراء ظهره ثياب العظمة ويتجرد من الهالة المحيطة به، وقد كان من المتوقع إذن أن يتباطأ البيت النبوي في قبول الدعوة؛ لكن هذه الاستجابة السريعة منهم للإسلام تكشف بجلاء عن صدق محمد ﷺ في دعواه، وكيف أنه كان في قمة الخلق حتى بالنسبة للذين يشاطرونه النوم والأكل، ويعتبر إسلام علي وخديجة وزيد في حد ذاته دليلاً على صدق أهلية محمد ﷺ وعلى ما يتمتع به هذا النبي الكريم من خلق عظيم. لقد سأل علي رسول الله ﷺ وهو ابن عشر سنين أسئلة محددة:

. ماذا أراك تصنع؟

. إني أصلي لله رب العالمين.

. ومن يكون رب العالمين؟

إنه إله واحد لا شريك له له الخلق، وبيده الأمر، يحيى ويميت، وهو على كل شيء قدير.

وأمام هذا البيان البسيط الواضح، لم يتردد الغلام الصغير في أن ينطق بالشهادتين.

ومنذ ذلك الحين وعلي مع النبي ﷺ لا يفارقه، يصلي معه ويصغي إليه ويراه وهو يتهيأ لتلقي الوحي، وكم من آيات كان هو أول من يسمعها وهي لا تزال حديثة بمنزلها ووحيتها...

والغريب أن أبا طالب عندما رأى ولده يصلي خفية وراء النبي ﷺ ذات يوم وفاجأه علي بأنه قد اعتنق الإسلام.. قال له أبوه: "أما أنه لا يدعو إلا إلى خير فالزمه".

وليس ذلك فحسب بل إن أبا طالب رأى النبي ﷺ يوماً يصلي وقد وقف علي إلى يمينه ولمح من بعد ولده جعفرًا، فناده حتى إذا اقترب منه قال له: صل جناح ابن عمك وصل عن يساره.

أو ليس ذلك دليلاً آخر على صدق نبوة محمد ﷺ؟

وهكذا كان أبو طالب.. رجلاً سمح الفكر، دمث الخلق، ولم يكن ينقصه إلا أن يشهر إسلامه مثل ولديه، إلا أن إرادة الله غالبته!

(١) انظر: سيرة ابن هشام ١/١٧٤.

وقد نقل ابن إسحاق عن بعض أهل العلم بالسيرة أن أبا طالب قال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ فقال النبي ﷺ: أي عم، هذا دين الله ودين ملائكته، ودين رسله ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله به رسولا إلى العباد، وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه، وأعاني عليه".

فقال أبو طالب: أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت.

وقد صدق أبو طالب فيما بذله لابن أخيه من وعودٍ تتيح له أن يمضي في سبيل الدعوة إلى الله آمناً من إيذاء قريش ومكرها به، وظل أبو طالب حامياً لرسول الله ﷺ قائماً دونه معلناً استعداداه للدفاع عنه، لذلك مشى رجال من أشرف قريش إلى أبي طالب وفي مقدمتهم أبو سفيان بن حرب فقالوا له: "يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه؛ فإنك على مثل ما نحن عليه من خلاف فسنكفيكه"، فردهم أبو طالب ردّاً جميلاً، ومضى محمد يشهد في الدعوة إلى رسالته، ويزداد لدعوته أعواناً.

واثمرت قريش بمحمد ومشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ومعهم عُمارة بن الوليد بن المغيرة، وكان أنهد فتى في قريش وأجمله، وطلبوا إليه أن يتخذه ولداً ويُسلمهم مُجداً، فأبى ومضى محمد في دعوته ومضت قريش في ائتمارها.

ثم ذهبوا إلى أبي طالب مرة ثالثة وقالوا له: "يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وقد استنهيئك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين"، وعظم على أبي طالب فراق قومه عداوتهم، ولم يطب نفساً بإسلام ابن أخيه ولا خذلانه فبعث إلى محمد فقص عليه رسالة قريش، ثم قال له: "فأبقِ علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق"، فالتفت النبي ﷺ إلى عمه ممتلئ النفس بقوة إرادته، وقال له: "يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته".

فقال له أبو طالب: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه أبداً! وأفضى أبو طالب إلى بني هاشم وبني المطلب بقول ابن أخيه وبموقفه، وحديثه عنه يتدفق بروعة ما شهد وجمال ما شعر به، وطلب إليهم أن يمنعوا محمدًا من قريش، فاستجابوا له جميعاً إلا أبا لهب فإنه صارحهم بالعداوة وانضم إلى خصومهم عليهم^(١).

وفي مكة عاش علي عليه السلام جزءاً من رحلة الدعوة إلى الله مناصراً ومؤازراً للرسول . عليه الصلاة والسلام . وقد بدأ هذه الرحلة وهو في العاشرة من عمره، وختمها بالهجرة عقيب هجرة الرسول ﷺ وهو في الثالثة والعشرين من عمره.. أي أنه قضى فترة ريعان شبابه في العهد الأول لتأسيس الدعوة "العهد المكي" بكل ما حفل به هذا العهد من ألوان الصراع والجهاد.

وليس لنا أن نتخيل أعمالاً كبيرة لصبي في العاشرة، وبالتالي فشخصية علي في الدور المكي هي شخصية الذي يأخذ أكثر مما يعطي...

(١) انظر: سيرة ابن هشام ١٨٤/١ ت ١٨٦، د/ محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص: ١٦١-١٦٣.

وإذا كان والده أبو طالب يقوم بعبء الدفاع عن مُحَمَّد وعمه حمزة يقوم بشيء من هذا العبء، وإذا كانت عصبية الهاشميين تقف وراء الدعوة والداعي، فإن صبيًا في العاشرة لم يكن يستطيع بالتأكيد أن يلعب دوراً في هذه الحرب الضروس التي أعلنها صناديد قريش على مُحَمَّد ﷺ ودعوته.

وأكبر الظن أن عليًا قد انتهز هذه الفرصة فأفرغ جهده في التلقي عن رسول الله ﷺ واستظهار القرآن، وحفظ ما يصدر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل؛ ولذا استحق أن يكون باب مدينة العلم، فيروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: "أنا مدينة العلم وعلي بابها... من أراد العلم فليأته من بابي".

وقال ابن عباس ؓ لناس سألوه عن علي: كان جوفه ممتلئاً حكمة وعلماً.

وقال أيضاً: "علم رسول الله ﷺ من علم الله، وعلم علي من علم رسول الله ﷺ، وعلمي من علم علي". فنحن نرجح إذن أن عليًا قد أفرغ نفسه لوظيفة العلم خلال هذه الفترة، وقد ساعده على ذلك أنه شاب لم يحمل أعباء الحياة بعد، ولم تزل ذاكرته شابة قادرة على الحفظ والاستيعاب.

وقد أشرب قلبه فقه القرآن في هذه الفترة؛ حتى صار يقول وهو صادق في قوله: "سلوني عن كتاب الله ما شئتم، فو الله ما من آية من آياته إلا وأنا أعلم أنزلت في ليل أم في نهار".

نموذج لتربية مُحَمَّد (عليه الصلاة والسلام):

خلال قرن كامل.. والحديث عن مناقب علي وشماله ؓ جريمة سياسية يحاسب عليها بنو أمية . عفا الله عنهم . ومع ذلك.. ومع أن الحديث عن مناقبه خلال العصر العباسي، كان حديثاً على استحياء... لكن بقيت شمائل علي تتحدى كل عوامل الزيف والطمس.

وهذا البروز لمناقب علي، بالرغم من كل عوامل الطمس آية كبرى على أن تاريخنا نحن المسلمين تاريخ صادق يتحدى كل الانحرافات.. ولا يصح منه في نهاية المطاف إلا الذي صح في ضمير المسلم، وصح في يقين المسلم، وتطابق مع القيم الإسلامية.. قيم الحق والعدل والإنصاف: { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ } (١) .
و... { كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ } (٢).

ويرى الأستاذ العقاد: أن آداب الفروسية هي مفتاح شخصية الإمام علي ؓ، والذي يفيض منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج إلى تفسير؛ يقول الأستاذ العقاد:
"وآداب الفروسية هي تلك الآداب التي نلخصها في كلمة واحدة وهي: النخوة..."

(١) سورة المائدة، آية: ٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ٨.

وقد كانت النخوة طبعاً في علي فطر عليه، وأدباً من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه، وعادة من عادات "الفروسية" العملية التي يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الأقران، وإن لم يطبع عليها وينشأ في حجرها؛ لأن لغلبة الشجاع أنفة تأبي عليه أن يسف إلى ما يخجله ويشينه، ولا تزال به حتى تعلمه في النخوة تعلماً، وتمنعه أن يعمل في السر ما يزرى به في العلانية.

وهكذا كان علي عليه السلام في جميع أحواله وأعماله: بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى، ولا سيما في معاملة الضعفاء من الرجال والنساء، فلم ينس الشرف قط ليغتنم الفرصة، ولم يساوره الريب قط في الشرف، والحق أنهما قائمان دائماً كأتهما مودعان في طبائع الأشياء، فإذا صنع ما وجب عليه فليس من شاءوا ما وجب عليهم، وإن أفادوا كثيراً وباء هو بالخسار.

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتبل الفرصة السانحة بين يديه؛ لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الشجاع الشريف، ولم يرد أن يغلبه أو يقتص منه كيفما كان سبيل الغلب والقصاص.

قال بعض من شهدوا معركة صفين: لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفين وجدناهم قد نزلوا منزلاً اختاروه مستويّاً بساطاً واسعاً وأخذوا الشريعة . أي مورد الماء . في أيديهم... وقد أجمعوا على أن يمنعونا الماء، ففزعنا إلى أمير المؤمنين فخبّرناه بذلك فدعا صعصعة بن صوحان فقال له: أئت معاوية وقل له: إنا سرنا مسيرنا هذا إليكم ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، وإنك قدمت إلينا خيلك ورجلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا، ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها إذ حلت بين الناس وبين الماء، والناس غير منتهين أو يشربوا فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء ويكفوا حتى ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له....".

ثم قال راوي الخبر ما معناه: إن معاوية سأل أصحابه فأشاروا عليه أن يحول بين علي وبين المورد غير حافل بدعوته إلى السلم ولا بدعوته إلى المفاوضة في أمر الخلاف، فأرسل معاوية مدداً إلى حراس المورد يحمونه ويصدون من يقترب منه، ثم كان بين المعسكرين تراشق بالنبل فطعن بالرمح فضرب بالسيوف حتى اقتحم أصحاب علي طريق الماء وملكوه. وهنا الفرصة الكبرى لو شاء علي أن يهتبلها، وأن يغلب أعداءه بالظمأ كما أرادوا أن يغلبوه به قبيل ساعة... وقد جاء أصحابه يقولون: والله لا نسقيكموه، فكأنما كان هو سفير معاوية وجنده إليهم يتشفع لهم ويستلين قلوبهم من أجلهم. وصاح بهم: "خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم وخلوا عنهم؛ فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم".

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة في حرب أهل البصرة، فأبى أن يهتبلها وأغضب أعوانه إنصافاً لأعدائه؛ لأنه نهاهم أن يسلبوا المال ويستبيحوا السبي وهو في رأيهم حلال. قالوا: أترأه يحل لنا دمائهم ويحرم علينا أموالهم؟... فقال: "إنما القوم أمثالكم، من صفح عنا فهو منا ونحن منه، ومن لج حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر" وسن لهم سنة الفروسية أو سنة النخوة حين أوصاهم ألا يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا ستراً ولا يمدوا يداً إلى مال ^(١).

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية الإمام، ص: ١٩، ٢٠.

هكذا ذهب الكاتب الكبير عباس محمود العقاد وتبعته في ذلك مدرسته التي يسمونها بمدرسة التحليل النفسي.. وتمجيد البطولة الفردية.

لكننا - من منطلق إسلامي - نرى أن المسلمين الصادقين كلهم فرسان، وبالتالي فإن الفروسية إنما هي معنى وروح يجب أن تسري في كيان كل مسلم ووجدانه؛ حتى لو لم تتح له الظروف أن يشترك في عمل مباشر من أعمال الفروسية وواجباتها.



ففي المستوى العقيدي إعداداً وتربية...

وفي المستوى الأخلاقي والشرعي إعداداً وتربية....

وفي المستوى النفسي والفكري إعداداً وتربية...

في كل هذه المستويات تقف أمة الإسلام - وفي طبيعتها علي عليه السلام - وليس لها كلها إلا مفتاح شخصية واحد... هو مفتاح تكاملية الأخلاق والعقيدة وتوازنها وانسجامها، بحيث تقدم - في النهاية - المسلم صاحب السلوك القويم الرشيد... ومن هنا... فلا غرابة أن تتعدد مناقب علي... لا شيء إلا لأن علياً كان مسلماً حقاً... وكان نموذجاً لتربية النبوة في محتضن النبوة.. طفلاً وفقياً وشاباً.. أي كان صورة مصغرة من أخلاق تلك القمة السامقة التي عرفتها البشرية.. ممثلة في خاتم الأنبياء وإمامهم محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام).



وحين يحدثنا ابن حجر العسقلاني الحافظ في "الإصابة" أن مناقب علي كثيرة لدرجة أن الإمام أحمد بن حنبل عليه السلام لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلّي من المناقب، فإننا لا يجوز أن نعجب... لأن علياً مجرد رشح للتربية النبوية.. ينضح بكل ما فيها من خير.. كما ترشح الورقة الشفافة بكل ما في الورقة الأصلية من كلام. وفي هذا المعنى نفسه يقول الفقيه الأندلسي الكبير (الحافظ ابن عبد البر) في كتابه "الاستيعاب": "فضائل علي لا يحيط بها كتاب".

وأكبر درة تقدم في منظومة المناقب التي لا يحيط بها كتاب لهذا الخليفة الراشد.. وهي تؤكد كل التأكيد، ما ذكرناه من أثر بيت النبوة فيه، وتكشف عن جماع أخلاقه.. هي استحقاقه مؤاخاة الرسول عليه السلام له... ويروى ابن عمر ذلك في قوله: "أخى رسول الله عليه السلام بين أصحابه حتى بقى علي.. وكان رجلاً شجاعاً ماضياً على أمره إذا أراد شيئاً.. فقال رسول الله عليه السلام: "أما ترضى أن أكون أخاك".. قال: بلى يا رسول الله، رضيت.. قال: "فأنت أخي في الدنيا والآخرة!!" وعن علي عليه السلام أنه كان يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله لا يقوله أحد غيري إلا كذاب!!

وكان الرسول عليه السلام - كما أخرج الشيخان - يقول لعلّي: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي"... وقد أعطى النبي عليه السلام يوم "خير" الراية لعلّي، بعد أن بعث بها قبله أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب - عليه السلام أجمعين - فلم يتمكن من فتح حصون اليهود "بخير" قال ابن إسحاق: بعث رسول الله عليه السلام أبا بكر الصديق عليه السلام برايته إلى بعض خير فقاتل فرجع ولم يك فتح، وقد جهد، ثم بعث الغد عمر بن الخطاب فقاتل ثم رجع ولم يك فتح، وقد جهد، فقال رسول الله عليه السلام: "لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرار"، فتشوف لهذا

المقام الكريم أصحاب النبي ﷺ، بيد أنه أثر بها علياً . رضوان الله عليه . وكان علي أرمد فتفل النبي ﷺ في عينه، ثم قال: خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك.

وعن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال:

جئنا مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حين بعثه رسول الله ﷺ برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود، فطاح ترسه من يده، فتناول علي (عليه السلام) باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفر سبعة معي، أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب، فما نقلبه (١).

وروى الإمام مسلم في صحيحه أن فأرسل يُدعى مرحباً خرج من حصون اليهود يوم "خير" فنادى في المسلمين: من يبارز؟ وهو ينشد:

قد علمت "خير" أني مرحب
أطعن أحياناً وحيناً أضرب
شاكى السلاح بطل مجرب
إذا الليوث أقبلت تُحرب

فخرج له علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ففتك به.

وما ذكرنا في المناقب السابقة.. يدخل في باب واحد نريد أن ندلف منه إلى بيان شمائله في صورة مجملّة مستقاة من واقع تاريخه، فابن عمر يبين أسباب أخوة الرسول لعلي.. فيركزها في سبب واحد، ليس لأنه ابن عم رسول الله ﷺ... بل لأنه "شجاع ماض على أمره"...

ولهذا استحق أن يكون من الرسول بمنزلة هارون من موسى... واستحق أن يدعو له ألا يؤذيه حر الصيف ولا برد الشتاء... ولأنه شجاع "ليس بفرار" استحق حب الله ورسوله... واستحق أن يأخذ الراية يوم "خير"... بينما كان يتشوف لها كثير من الصحابة...!!



فالشجاعة - بحق - صفة أصيلة في علي... وهي صفة واضحة... كادت لبروزها تغطي على الصفات الأخرى.

وما يفعل الباحثون... وهم يرون علي بن أبي طالب يتقدم يوم (الخندق) لمنازلة "عمرو بن عبد ود" الذي كان يعدّه العرب بألف...

بينما لم يكن علي قد جاوز سن الصبا إلا بسنوات قليلة.. لدرجة أن الرسول ﷺ منعه مرتين من الاستجابة لنداء "عمرو بن ود" بالمبارزة!!

روى ابن إسحاق أن "عمرو بن ود" وكان قد قاتل يوم "بدر" حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد أحداً . خرج مُعلماً يوم "الخندق" فلما وقف هو وخيله نادى في المسلمين: من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب فقال له: يا عمرو إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذت منه إحداها، قال: أجل، قال علي: فإني

(١) انظر: سيرة ابن هشام ٢٥١/٣، ٢٥٢.

أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام، قال عمرو: لا حاجة لي بذلك، قال علي: فإني أدعوك إلى النزال، فقال عمرو: لم يا ابن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك، فقال له علي: لكني والله أحب أن أقتلك، فغضب عمرو عند ذلك، وأقبل على علي فتنازلا فقتله علي عليه السلام (١).

وماذا يفعل الباحثون وهم يرون عليًا لم يهزم أمام أحد قط؟

وما كان فوز معاوية في آخر الأمر فوز حرب وجيش وإنما كان فوز سياسة ودهاء!!

وفي بدر كان علي أحد ثلاثة قدمهم النبي الكريم للمبارزة، ولم يمهل خصمه بالرغم من حداثة سنة فأجهز عليها!! حيث ذكر مؤرخو السيرة أنه برز من المشركين يوم "بدر" عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، فخرج للقائهم فتية من الأنصار، فنادوا: يا محمد أخرج إلينا أكفأنا من قومنا، وقيل: إن الرسول ﷺ نفسه هو الذي استرجع أولئك الأنصار؛ رغبة منه أن تكون عشيرته أول من يواجه العدو في مثل هذا الموقف، فقال: قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي، فبارز عبيدة عتبة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد، فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وكذلك فعل علي مع خصمه، وأما عبيدة وعتبة، فقد جرح كلاهما الآخر، فكر حمزة وعلي بأسيا فهما على عتبة فأجهزا عليه، واحتملا صاحبهما فجاءوا به إلى رسول الله ﷺ فأفرشه الرسول قدمه فوضع خده على قدمه الشريف، وقال: يا رسول الله لو رأي أبو طالب لعلم أني أحق بقوله:

ونسلمه حتى نُصرع دونه ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ثم أسلم الروح (٢).

وفي "خير" وقع اختيار الرسول ﷺ عليه... ليعطيه الراية كما ذكرنا وقد فتحها الله على يديه.

وعندما شكوا بعضهم عليًا إلى رسول الله ﷺ خطبهم الرسول فقال: "أيها الناس... لا تشكوا عليًا فوالله إنه لجيش في ذات الل"ه!!

ولم تكن شجاعة علي منفصلة في أي موقف عن خلق الفروسية التي رفعها الإسلام وأعلى من شأنها... فمع ثقته في قوته الذاتية لم يبدأ أحداً بقتال... وكان ينصح ابنه الحسن بقوله: "لا تدع إلى المبارزة، فإذا دعيت إليها فأجب؛ فإن الداعي إليها باغ، والباغي مصروع".

وفي موقعي (الجميل وصفين) لم يكن على البادئ فيهما.. ولا في غيرهما.. بل إنه كان يمنع جنده من الإجهاز على جريح.. أو إرهاب من المعركة... وكان يمنعهم من أن يسلبوا مالا أو ينتهكوا حرمة... وكان لا يحارب غيلة؛ وإنما كان يحارب حرباً واضحة بعد أن يستنفد كل وسائل المسالمة.

لقد كان يعز على الإمام علي عليه السلام أن يقاتل المسلمون بعضهم بعضاً، فأقام ثلاثة أيام قبل موقعة (الجميل) ورسله تتردد على أهل البصرة يدعوه إلى الرجوع إلى الطاعة والدخول في الجماعة؛ ولكنهم لم يستجيبوا لندائه، فزحف بقواته لخوض

(١) انظر: سيرة ابن هشام ١٦١/٣.

(٢) انظر: السابق ٤٦٥/٢، ٤٦٦.

المعركة في (١٠ من جمادى الآخرة) فلما دنت صفوفه من صفوف خصومه، وهم وقوف تحت رايتهم العظيمة، وعائشة في هودجها في المقدمة قد كسى بصفائح الحديد والدروع، دعا القوم إلى الصلح وناشدتهم حقن الدماء، ولكنهم أصروا على الحرب، فطلب علي من طلحة والزبيرة أن يدنوا منه ليتحدث إليهما، فدنوا منه حتى اختلفت أعناق فرسيهما، فذكر طلحة والزبيرة بأنهم إخوة في الإسلام يحرم دمه ويحرم دمهما، ثم سألهما عن السبب في تحولهما عن الإخاء فأجابته طلحة بأن مرجع ذلك أنه أَلَبَّ على عثمان، وأنه إذا كان قد بايع علياً فلائنه بايعه مكرهاً والسيف على عنقه، ثم ذكر علي الزبير بأمور جرت في حياة رسول الله ﷺ موجهاً حديثه للزبير بعد أن رأها يجبان بعضهما بعضاً: "أما إنك تقاتله وأنت ظالم له"، فلما ذكره علي بذلك أبدى الزبير أسفه وأقسم ألا يقاتل علياً أبداً، ثم انصرف إلى أصحابه وهو ينوي اعتزال المعركة؛ ولكن ابنه - في رواية - عبد الله أثناه عن ذلك واتهمه بالجبن عندما رأى رايات ابن أبي طالب، فأحفظه هذا الاتهام، وكفر عن يمينه لعلي بأن أعتق غلامه مكحولاً، ومع ذلك فقد ترك المعركة منذ بدايتها ولم يستطع أن يواصل القتال، وقيل: إن الزبير أقبل إلى ولده عبد الله فأفوضى إليه برغبته في الانصراف من المعركة، ودعا ولده إلى الانصراف معه، فأبى عبد الله أن يرجع حتى يحكم الله بين الفريقين، فتركه الزبير ومضى نحو البصرة، وقد عقد النية على العودة إلى الحجاز، وقدر له أين يلقي مصرعه، كما قدر لابنه عبد الله أن يتلقى من الجراح والطعنات (٣٧) جرحاً ما بين طعنة ورمية، ويجمع مؤرخو العرب على أن الزبير قتل غداً بوادي السباع، استدبره عمرو بن جرموز أحد أتباع الأحنف بن قيس، ثم طعنه وقتله، أما طلحة فقد أصابه سهم غرّب فأصابه، فاعتزل المعركة وهو جريح ينزف، ونزل في دار خربة وظل ينزف حتى مات، وقيل: طعنه مروان بن الحكم بعد أن أيقن بالهزيمة^(١).

كان علي يعرف العدو عدواً حيثما يرفع السيف لقتاله؛ ولكنه لا يعادي امرأة ولا رجلاً مولياً ولا جريحاً عاجزاً عن قتال، ولا ميتاً ذهبت حياته في سبيل حروبه؛ بل لعله يذكر له ماضيه يومئذ، فيقف على قبره ليكيه ويرثيه ويصلي عليه، وهذه الفروسية هي التي بغضت إليه أن ينال أعداءه بالسباب، وليس من دأب الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام، فلما سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين قال لهم: "إني أكره أن تكونوا سبابين ولكنكم لو وصفتم أعمالكم وذكرتم رجالهم كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقتلتم مكان سبكم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوى عن الغي والعدوان من لهج به".

وقد أثرت البيئة العربية التي تحيط بعلي في طباعه وسلوكه؛ فقد كان ذا قلب شديد وجسد قوي، وعزم نافذ تخشى لقاءه الأبطال، بحيث إنه ما حمل على صف إلا أرجعه، وما دخل في زحف إلا فرقه.... لكنه مع ذلك كله - ما ترك لنفسه عنان الغضب... يقودها.. ولا تقوده... ولا ترك لانفعالات أصحابه وتابعيه أن تمثل أو تقسو أو تغدر أو تنسى المروءة العربية... والأخلاق الإسلامية في الحروب... بل كان يضرب لهم المثل الأعلى في الفروسية... فيصلي على قتلى أعدائه ويطلب لهم الغفران.. كما حدث في موقعة (الجمل)...

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/٤٣، ٢/٤٤، د/ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص: ٣١١ - ٣١٣ (١٨)

قيل: إن عدة القتلى يوم (الجملة) بلغت نحو عشرة آلاف نصفهم من أصحاب علي، ونصفهم من أصحاب عائشة، يقول سيف بن عمر الأسدي مبينا سيرة علي في دفن القتلى دون تمييز بين شيعته وأنصار عائشة، ومقدار توجعه عليهم: "وأقام علي بن أبي طالب في عسكره ثلاثة أيام لا يدخل البصرة، وندب الناس إلى موتاهم، فخرجوا إليهم فدفنهم، فطاف علي معهم في القتلى، فلما أتى بكعب بن سور قال: زعمتم أنما خرج معهم السفهاء، وهذا الخبر قد ترون. وأتى على عبد الرحمن بن عتاب فقال: هذا يعسوب القوم . يقول الذي كانوا يُطيفون به . يعني أنهم قد كانوا اجتمعوا عليه، ورضوا به لصلاتهم، وجعل علي كلما مرّ برجل فيه خير قال: زعم من زعم أنه لم يخرج إلينا إلا الغوغاء، هذا العابد المجتهد، وصلى على قتلاهم من أهل البصرة، وعلى قتلاهم من أهل الكوفة، وصلى على قريش من هؤلاء وهؤلاء، فكانوا مدنيين ومكيين، ودفن علي الأطراف في قبر عظيم، وجمع ما كان في العسكر من شيء، ثم بعث به إلى مسجد البصرة، أن من عرف شيئاً فليأخذه، إلا سلاحاً كان في الخزان عليه سمة السلطان، فإنه لما بقي لم يعرف، خذوا ما أجبوا به عليكم من مال الله عز وجل، لا يحل لمسلم من مال المسلم المتوفى شيء، وإنما كان ذلك السلاح في أيديهم من غير تنفيل من السلطان" (١).

ويقول سيف بن عمر في وصف الآداب العالية التي اتسمت بها فروسية الإمام علي يوم (الجملة): كان من سيرة علي ألا يقتل مدبراً ولا يُذف على جريح، ولا يكشف سترًا، ولا يأخذ مالا، فقال قوم يومئذ: كيف يُجَلّ لنا دمائهم، ويُحرم علينا أموالهم؟ فقال علي: القوم أمثالكم، من صفح عنا فهو منا، ونحن منه، ومن لج حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر، وإن لكم في خمسة لغني، فيومئذ تكلمت الخوارج (٢). وحين ظفر عليٌّ بألد أعدائه وهم (عبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص) عفا عنهم وأحسن إليهم وأبى على جنده أن يتبعوهم بأذى.

وأما عمرو بن العاص الذي عرف في علي ذلك الخلق... فقد استغله لصالحه أيما استغلال حين سقط أمامه في صفين، وكانت ضربة واحدة من علي تقضي عليه.. إلا أنه سرعان ما كشف عن سوءته... فأشاح علي بوجهه عنه... وفي (صفين) أيضاً وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد والعداء لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثارات وأثارات أصحابه عندهم إلا بمقدار ما استحقوه في موقف الساعة، فاتفق في يوم صفين أن يخرج من أصحاب معاوية رجل يسمى "كريب بن الصباح الحميري" فصاح بين الصفين: من يبارز؟ فخرج إليه رجل من أصحاب علي فقتله ووقف عليه ينادي: من يبارز؟... فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول... ثم نادى: من يبارز؟... فخرج إليه ثالث... فصنع به صنيعه بصاحبيه، ثم نادى رابعة: من يبارز؟.. فأحجم الناس ورجع من كان في الصف الأول إلى الصف الذي يليه... وخاف على أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج على ذلك الرجل المدلل بشجاعته وبأسه فصرعه... ثم نادى ندائه حتى

(١) انظر: سيف بن عمر الأسدي: الفتنة ووقعة الجملة، جمع وتصنيف أحمد راتب عرموش، ص: ١٧٨.

(٢) انظر: السابق، ص: ١٨١.

أتم ثلاثة... صنع به صنيعه بأصحابه، ثم قال مسمماً الصفوف: يا أيها الناس، إن الله عز وجل يقول: الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص، ولو لم تبدأونا ما بدأناكم، ثم رجع إلى مكانه... وفي الموقعة ذاتها تتجلى أخلاق علي في الفروسية حينما حاول معاوية وجماعته أن يمتيتوا علياً وأصحابه عطشاً بمنعهم من ورود الماء... وهم يقولون له: "ولا قطرة حتى تموت عطشاً"... ولكنه لما حمل عليهم وأجلاهم عن الماء أتاح لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده، مع أن ذلك كان له تأثير خطير على نتيجة المعركة.



أجل.. لقد كان علي رضي الله عنه شجاعاً، وكان جندياً تتوافر له كل مقومات الجندي، من سلامة الجسم والعقل والإيمان... فضلاً عن أخلاق الفروسية التي تجلت فيه على نحو مثير وغريب... لكن بقي أن كل ذلك ليس إلا بعض أخلاق على... وليس إلا جزءاً من مفتاح شخصيته.. أما جماع أخلاقه.. وأما المفتاح الصحيح لشخصيته فهو أنه كان كما أسلفنا مؤمناً صادقاً اليقين تربي في بيت النبوة وحمل بصماتها في كل مسلك يسلكه، أو خلجة تختلج بها نفسه أو كلمة ينطق بها لسانه... لقد كان بحق مؤمناً راشداً... ونموذجاً لتربية محمد (عليه الصلاة والسلام) وكفاه بهذا شرفاً...



لولا علي لهلك عمر!!

لقد كان هذا الجيل العظيم النادر... ممن وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: { أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا }^(١)... فلم يكن صحابة رسول الله ﷺ طلاب دنيا... ولا ممن يجرون وراء المناصب أو كراسي الحكم كما يفعل الثوريون الانقلابيون وأبناء الملوك الذين يقتل بعضهم بعضاً بغية أعراض زائلة... بل كانوا رهباناً بالليل وفرساناً بالنهار... تلقي العلم والتفقه في الدين بغيتهم، وصوم النهار وقيام الليل غايتهم... والجهاد في سبيل الله أسمى أمانيتهم...

وإنها لعقول سقيمة... وأفئدة مريضة... تلك التي تهبط بهذا الجيل إلى الهاوية والسقوط... فتجرده من هذه المعاني السامية... وتلك المثل العليا... وتشككه في قرآنه.. وكأن هذه الفئة لم تقرا ولم تع قوله تعالى: { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ }^(٢)، وقوله تعالى: { لَوْ أَنفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ }^(٣)... يوضح الأستاذ العقاد السلوك القرآني المتحكم في علي فيقول:

"ولنا أن نقول إنه كان ﷺ يتلمذ للقرآن الكريم، ويستوحيه نصًّا في عرفان إسلامه وتعزيز إيمانه، فكانت نظرته إلى الخلق والخالق نظرة قرآنية يبتكر فيها ما شاء ابتكار التلميذ في الحكاية عن الأستاذ... ونحن لا نستغرب ابتداءً هذا النمط من النظر الفلسفي على نحو من الأنحاء في عصر الإمام علي ﷺ؛ لأنه كان عهداً نبت فيه أصول الفرق الإسلامية جميعاً من الخوارج والشيعة والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح والمجتهدين في قراءة القرآن وتفسيره على شتى المذاهب، فأقرب شيء إلى المعقول أن يكون إمام العصر كله قدوة في الاجتهاد والنظر وعنواناً للنوازع التي تفرقت بين أهل زمانه وتعبيراً صادقاً لتفكيره ووعيه"^(٤).

وقد غالى بعض أصحاب العقول المريضة الذين استبدت بهم العواطف الهائجة، وتمكنت منهم الأهواء المضللة وأعمتهم نظرتهم العصبية وبلغ بهم القصور العقلي والفكري ما جعلهم يضعون عليًّا في منزلة تعدل منزلة النبوة... وهذا أحدهم وباسم التعصب الأعمى لعلي ذهب إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم ينجح في تكوين هذا الجيل... بل إنه (لم يقرر أن يجعل من الجيل الإسلامي الرائد الذي يضم المهاجرين والأنصار قيماً على الدعوة بعده... لأنه لم يعبئه تعبئة رسالية وفكرية واسعة يستطيع أن يمسك بالنظرية بعمق، ويمارس التطبيق في ضوءها بوعي ويضع للمشاكل التي تواجهها الدعوة باستمرار حلولها النابعة من الرسالة...

(١) الفتح، آية: ٢٩.

(٢) الفتح، آية: ٢٩.

(٣) الأنفال، آية: ٦٣.

(٤) ١

هكذا يقول السيد باقر الصدر في كتيبه الإنشائي الذي أطلق عليه اسم "التشيع ظاهرة طبيعية"، وهو يستمر في هرائه ويقول:

"بل إننا نلاحظ أكثر من ذلك أن الجيل المعاصر للرسول (ويلاحظ أنه لا يكتب أمام الرسول ﷺ عبارة . عليه الصلاة والسلام . وإنما يؤثر بها عليها) لم يكن يملك تصورات واضحة محددة حتى في مجال القضايا الدينية التي كان النبي يمارسها مئات المرات".



ويظن هؤلاء وأمثالهم من الغلاة أنهم بهذا يرفعون من أسهم علي ﷺ مع أنه حاشاه . أمام المقاييس الصحيحة . لا تعرف قيمة علي إلا ذا وزن بنظرائه من العظماء.. أي بجيل الراشدين كله... أما أن يبدو الأمر . كما يريد هؤلاء الغلاة . وكأن علياً كان العظيم وحده... فهذا شيء يقلل من أسهمه... لأن ارتفاع إنسان إلى مقام القيادة في مجموعة عظيمة... أو شعب عظيم.. ليس كارتفاع إنسان في مجموعة جاهلة غير واعية... كما يحدث في الشعوب المتخلفة؛ التي ينزو عليها كل عشية عسكري غر أو انقلابي مأجور وهي لا تبدي حراكاً بل عليها أن تقوم (بالتصفيق الحاد)!! وكفى . وعظمة علي ﷺ أنه كان في الصف الأول الذي لا يزيد على عشرة، وسط جيل عظيم من الصحابة بلغ عدده اثني عشر ألفاً... فتحوا الدنيا وحطموا أكاسرة الظلم وقياصرة البغي...



وأى جيل هذا الذي يتحدث عنه هؤلاء؟ إنه الجيل الذي تحدث عنه محمد بن عبد الله ﷺ... الذي لا ينطق عن الهوى... فقال فيما رواه الإمام البخاري عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: "خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم".

قال عمران بن حصين: (فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة)، ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن. صدق رسول الله..

أليسوا "خير أمة أخرجت للناس".

أليسوا الذين حفظوا القرآن حرفاً وشكلاً؟



والغريب أننا لم نسمع قبل وفاة الرسول أن خلافاً كان بين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي أبدأ.. فلماذا يا ترى حدث هذا الخلاف فجأة بموت الرسول ﷺ؟ سيقول السفهاء من الناس: إنها الخلافة بعده...

ونقول لهم: إنا وجدنا عمر هو الذي بايع أبا بكر وقد كان أولى به أن يطلبها لنفسه... فمثل هذا المنصب (لعبيد الدنيا) لا يقبل التنازل، وقد كان في الإمكان أن يعيش أبو بكر أطول من عمر... فلا يناها عمر أبدأ.. ولو كان الأمر كذلك أيضاً لكان أولى بعمر- بدل أن يتركها شورى في ستة . أن يوصي بها لابنه عبد الله بن عمر... وبعضهم اقترح عليه

ذلك... لكن عمر قال: بحسب آل الخطاب أن يليها واحد منهم، فإن كان خيراً فقد أصبنا منه... وإن كان رزواً قمنا بنصيبنا منه.

وقد عرضت الإمامة على (عبد الله بن عمر) نفسه فيمن عرضت عليه عند مقتل عثمان فهرب منها... فهذا الجيل الفذ الفريد في كتاب البشرية كان يعتبر أمثال هذه المناصب رزواً... وعبئاً.. وتكليفاً... لا تشريفاً.. وكان يهرب منها... مثل ما كان بعده بأجيال أبو حنيفة يهرب من القضاء!!

ولعل هذا الموقف من هذا الجيل الفريد كان استجابة لتحذير النبي ﷺ من التطلع إلى الإمارة والتشوف إلى تقلد منصب من المناصب أو ولاية من الولايات؛ فعن النبي ﷺ أنه قال لعبد الرحمن بن سمرة: "يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها" (١).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرزعة وبئست الفاطمة" (٢).

وقال رسول الله ﷺ: "من جعل قاضياً بين الناس فقد ذبح بغير سكين" (٣).

وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: "ما من رجل يلي أمر عشرة فما فوق ذلك إلا أتى الله عز وجل يوم القيامة يده إلى عنقه: فكه برّه أو أوبقه إثمه، أولها ملامة وأوسطها ندامة، وآخرها خزي يوم القيامة" (٤).

ولماذا نذهب بعيداً في بيان حقيقة هذا الجيل الذي لا يختلف عليه إلا مغرض صاحب هوى فاسد... وعلى ابن أبي طالب نفسه... بَيِّن في غير موضع وموقف حقيقة علاقته بهذا الجيل.. حين عامله في أشد ساعات الخلاف أفضل معاملة وأنبهها... وحتى الخوارج.. وحتى الموتى من جيش معاوية... كل هؤلاء... نالوا من المعاملة الكريمة لعلي ما هم أهلها.

أما علاقته بإخوته أبي بكر وعثمان.. وهي بيت القصيد.. فيوضحها علي أيضاً... في مواقف متعددة... أبرزها أنه عاش المستشار الأمين للخلفاء الراشدين قبله... وكان عضدهم الأمين في كل أمر... وليس هناك أدنى دليل على موقف مخالفة أو خروج على الجماعة... وما مأخذه على عثمان إلا من باب الحب والولاء والحرص على عثمان، ولو كان يطوي جوانحه على شيء لما قام بنصح عثمان ولتركه يمشي وحده.. في الطريق الذي مشى فيه... حتى انتهى إلى ما انتهى إليه... ولما أرسل إليه ابنه الحسن والحسين ليقوما بحراسته...

وفي ذلك يقول الأستاذ العقاد: "أعان عليّ أسلافه الثلاثة برأيه وعمله وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقاله، ولم يبد منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم... وأولى أن يقال: إن دلائل وفائه في حياتهم وبعد ذهابهم كانت أظهر من دلائل

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه البخاري وأحمد.

(٣) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي.

(٤) أخرجه أحمد.

جفائه؛ فإنه احتضن ابن أبي بكر مُجَدِّداً وكفله بالرعاية ورشحه للولاية... وقد سمي ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه، وهم: أبو بكر وعمر وعثمان.

ويخطئ جداً من يتخذ فتواه في مقتل الهرمزان دليلاً على كراهيته لعمر أو نقمة منه في أبنائه... فقد أسرع عبيد الله بن عمر إلى الهرمزان، فقتله انتقاماً لأبيه، ولم ينتظر حكم ولي الأمر فيه ولا أن تقوم البينة القاطعة عليه، فلما استفتي في هذه القضية أفتى بالقصاص منه، ولم يغير رأيه حين تغير رأي عثمان، فأعفاه من جريمة عمله... لأنه هو الرأي الذي استمدته من حكم الشريعة كما اعتقده وتحرّاه، وبهذا الرأي دان قاتله عبد الرحمن بن ملجم، فأوصى وكرر الوصاية ألا يقتلوا أحداً غيره لمظنة المشاركة بينه وبين رفقائه في التآمر عليه" (١).

وكانت له استشارات ونصائح عمل بها عمر... واعتبرها يداً طولى.. حتى إنه قال في أخيه علي كلمته المشهورة: لولا علي لهلك عمر...!!

فلماذا يا ترى يتوهم بعض الناس أشياء لا يؤيدها دليل صادق من وقائع التاريخ الصحيح؟! بل الغريب أن عليّاً كان يرفض الخلافة... عندما رشحه عمر لها وأخذ يحرض طلحة على قبولها... واضطر أمام رفض كل منهم للخلافة أن يخطب على المنبر ويعلن أن الخلافة حق الأمة تختار من تشاء: (إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم) فكيف إذن كان يطوي صدره على شيء وهو يؤمن بأن الخلافة حق للأمة...!! وقد أورد السيوطي عن الإمام علي نصّاً مهماً ينبئ عن اعتقاد الإمام بأن الخلافة حق للأمة، وأن النبي ﷺ توفي دون أن يعهد لأحد بالأمر من بعده، لا لعلي ولا لغيره، كما يكشف عن مساندة علي للخلفاء الثلاثة قبله وإخلاصه النصيحة لهم؛ فعن الحسن بن علي قال:

"لما قدم عليٌّ البصرة قام إليه ابن الكواء، وقيس بن عباد، فقالا له: ألا تخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرت فيه تتولى على الأمة تضرب بعضهم ببعض؟ أعهد من رسول الله ﷺ عهده إليك؟ فحدثنا فأنت الموثوق المأمون على ما سمعت، فقال: أما أن يكون عندي عهد من النبي (عليه الصلاة والسلام) في ذلك فلا، والله لئن كنت أول من صدق به فلا أكون أول من كذب عليه، ولو كان عندي من النبي (عليه الصلاة والسلام) عهد في ذلك ما تركت أخا بني تميم بن مرة (٢)، وعمر بن الخطاب يقومان على منبره، ولقاتلتهم بيدي، ولو لم أجد إلا بردي هذا، ولكن رسول الله ﷺ لم يقتل قتلاً، ولم يمت فجأة؛ مكث في مرضه أياماً وليالي، يأتيه المؤمن فيؤذنه بالصلاة، فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس، وهو يرى مكاني. ولقد أرادت امرأة من نسائه أن تصرفه عن أبي بكر، فأبى وغضب، وقال: أنتن صواحب يوسف، مُرُوا أبا بكر يُصلي بالناس، فلما قبض الله نبيه ﷺ نظرنا في أمورنا، فاخترنا لدنيانا من رضىه نبي الله ﷺ لدينا. وكانت الصلاة أصل الإسلام، وهي أمير الدين، وقوام الدين، فبايعنا أبا بكر، وكان لذلك أهلاً، لم يختلف عليه منا اثنان، ولم يشهد بعضنا على بعض، ولم تقطع منه البراءة، فأديت إلى أبي بكر حقه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جنوده وكنت آخذ إذا

(١) عباس محمود العقاد، عبقرية الإمام، ص: ١١٠.

(٢) يريد أبا بكر الصديق ﷺ.

أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي، فلما قبض تولاهما عمر، فأخذها بسنة صاحبه، وما يعرف من أمره، فبايعنا عمر، ولم يختلف عليه منا اثنان، ولم يشهد بعضنا على بعض، ولم تقطع منه البراءة، فأديت إلى عمر حقه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جيوشه، وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي، فلما قبض تذكرت في نفسي قرابتي وسابقتي وسالفتي وفضلي، وأني أظن أن لا يعدل بي ولكن خشى أن لا يعمل الخليفة بعده ذنباً إلا لحقه في قبره، فأخرج منها نفسه وولده، ولو كانت محابة منه أثر بها ولده، فبرئ منها إلى رهط من قريش ستة أنا أحدهم، فلما اجتمع الرهط ظننت أن لا يعدلوا بي، فأخذ عبد الرحمن بن عوف موثقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولاه الله أمرنا، ثم أخذ بيد عثمان بن عفان، وضرب بيده على يده، فنظرت في أمري، فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي، وإذا ميثاقي قد أخذ لغيري، فبايعنا عثمان، فأديت له حقه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جيوشه، وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني وأضرب بين يديه الحدود بسوطي، فلما أصيب نظرت في أمري، فإذا الخليفان اللذان أخذاهما بعهد رسول الله ﷺ إليهما بالصلاة قد مضيا، وهذا الذي قد أخذ له الميثاق قد أصيب؛ فبايعني أهل الحرمين، وأهل هذين المصرين، فوثب فيها من ليس مثلي ولا قريبته كقرابتي، ولا علمه كعلمي، ولا سابقته كسابقتي، وكنت أحق بها منه" (١).

وقد تواتر عن علي كرم الله وجهه أنه كان يقول على منبر الكوفة: (خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر). روى عنه هذا. كما يقول السيد محب الدين الخطيب، من أكثر من ثمانين وجهاً رواه البخاري وغيره، ولا يوجد تاريخ في الدنيا لا تاريخ الإسكندر ولا تاريخ نابليون. صحت أخباره كصحة هذا القول. وكان يقول أيضاً: (لا أوتي بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا ضربته حد المفترى)؛ ولهذا كان الشيعة المتقدمون. الذين لسوا باطنية. متفقين على تفضيل أبي بكر وعمر.

وقد بلغ التقدير والحب من علي لسابقه في الخلافة أن سمى بعض أبنائه بأسمائهم.... بعد الحسن والحسين ونجد ابن الحنفية، كان أبناء علي هم: أبو بكر وعمر وعثمان... كما أن أم كلثوم الكبرى بنت علي... كانت زوجة لعمر بن الخطاب!!

فأي جيل هذا الذي يتحدثون عنه؟ إنهم. حقيقة. من سفحهم الممعن في هبوطه... لا يستطيعون... حتى أن يتخيلوه في سموه... إنه جيل فريد فذ. ﷺ ورضوا عنه. ولا نامت أعين الخبناء!!...



(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص: ٢٠٩ - ٢١١.

بين علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف

تولى عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية الخلافة بعد استشهاد عمر بن الخطاب . رضي الله عنهما . أواخر ذي الحجة سنة (٢٣هـ)، وكان عمر بن الخطاب قد وضع قبيل وفاته طريقة لاختيار من يخلفه في منصب الخلافة؛ إذ لم يكن ثمة قاعدة ثابتة أو نظام مستقر لشغل منصب الخلافة؛ بل كان اختيار الخليفة يخضع للاجتهاد وتبادل الآراء ووجهات النظر؛ بغية اختيار أنسب من يصلح لهذا المنصب الخطير من جماعة المسلمين، وقد أطال عمر التفكير في أمر الخلافة بعده وهو على فراش الموت، فأشار عليه البعض بأن يعهد بالخلافة إلى شخص بعينه، فرفض عمر قائلاً: "إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني، أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني، رسول الله ﷺ".

وقد انتهى عمر بن الخطاب بعد تفكير عميق إلى أن يجعل الأمر شورى بين ستة من كبار الصحابة شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، وتوفي وهو راض عنهم، وهم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، ﷺ.

وكان طلحة غائباً عن المدينة، فلما قدموا عليه خاطبهم موضحاً الأسباب التي حملته على اختيارهم لتكون الخلافة في أحدهم، فقال: "إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض، إني لا أخاف عليكم إن استقمتم، ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم، فيختلف الناس، فأنهضوا على حجرة عائشة بإذن منها، فاختاروا رجلاً منكم... فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام، وليصل بالناس صهيبي، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم". ثم أوصى عمر المرشحين الستة بأن يحسن من يقع عليه الاختيار إلى الأنصار، فهم الذين تبوأوا الدار والإيمان فيحسن إلى محسنهم، ويعفو عن مسيئهم.

وأمر عمر بن الخطاب كذلك بأن يحضر اجتماعات المشاورة شيوخ الأنصار؛ إذ لا خوف منهم أن ينازعوهم الأمر، وأن يحضر معهم كذلك الحسن بن علي وعبد الله بن عباس، وأخيراً أوصى عمر بأن يحضر ابنه عبد الله مستشاراً دون أن يكون له من الأمر شيء، فوجوده ليس إلا عامل ترجيح؛ إذ أوصاه عمر بأن يكون مع الأكثرية إذا اختلف القوم، أو مع الحزب الذي يكون فيه عبد الرحمن بن عوف إذا تساوى أهل الشورى ثلاثة ثلاثة.

ولما توفي عمر اجتمع أهل الشورى، فتشاوروا ثلاثة أيام دون أن يصلوا إلى نتيجة، فاقترح عبد الرحمن بن عوف عليهم أن يتنازل عن حقه في الترشيح على أن يتولى هو أمرهم، فوافقوا.

ثم بدأ عبد الرحمن بن عوف يختلي بأهل الشورى واحداً واحداً، وظهر بعد اتصالاته بهم أن أهل الشورى قد حصروا الاختيار في شخصي علي وعثمان، فقد اختار الزبير علياً، واختار طلحة عثمان، وامتنع سعد عن الاختيار تاركاً أمره إلى عبد الرحمن بن عوف، وهكذا انقسم أهل الشورى إلى فريقين: فريق يؤيد عثمان وفريق يؤيد علياً.

والواقع أن عبد الرحمن بن عوف لم يأل جهداً في اختيار من يصلح للخلافة حين انحصر الترشيح في علي وعثمان، فأمضى أياماً وليالي يستطلع آراء الناس ويسألهم عن يرضونه خليفة لهم، فوجد أن أكثر الناس يميلون إلى عثمان ويؤثرونه

على علي.

فلما رأى اتفاق الناس واجتماعهم على عثمان عاد إلى المسجد وعاود اتصاله من هناك بكل من علي وعثمان على انفراد حتى الصباح، ثم أدى الجميع صلاة الصبح، وعلى أثر ذلك جمع عبد الرحمن الرهط وبعث إلى المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد، فاجتمعوا في المسجد وبدأوا يتناقشون فيما بينهم فيمن يختارونه، واحتدم النقاش فنصح سعد بن أبي وقاص عبد الرحمن بن عوف أن ينهي الموضوع قبل أن يفتتن الناس، فأعلن عبد الرحمن اختياره، فقال: "إني قد نظرت وشاورت فلا تجعل أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً"، ثم دعا علياً وقال له: "عليك عهد الله وميثاقه، لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفيتين من بعده" فأجابه بالقبول، ثم دعا بعثمان وأوصاه بمثل ما أوصي به علياً فقبل، ثم رفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان، وقال: "اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان" فزاحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه عند المنبر، فقعد عبد الرحمن مقعد النبي من المنبر، وأقعد عثمان على الدرجة الثانية، فأخذ الناس يبايعونه.

وقد استند الناس في إيثارهم عثمان بن عفان بالخلافة إلى عدة أسباب منها: سابقته في الإسلام، وإصهاره إلى النبي ﷺ في ابنتيه رقية ثم أم كلثوم، ولهجرته مع المهاجرين الأولين إلى الحبشة، ولما عُرف به من لين وسماحة بعد شدة عمر بن الخطاب ﷺ، فضلاً عن خوفهم من تحول الخلافة إلى نظام وراثي في بني هاشم لا تخرج منهم أبداً إذا بويع بها علي بن أبي طالب...

وقد اتهم عبد الرحمن بن عوف . وهو صهر عثمان؛ حيث كان قد تزوج أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أخت عثمان لأمه . بمحاباة عثمان وافتئاته على حق علي في الخلافة حين أثر بها عثمان، وهي دعوى لا أساس لها من الصحة ولا من الواقع التاريخي، فقد كان القوم أتقى الله وأحرص على الأمة، وأكرم على نفوسهم مما يتصوره هؤلاء الباحثون.

وقد كان بوسع عبد الرحمن بن عوف ﷺ ألا يخرج نفسه من أصحاب الشورى ليختار لهم بعد مشاورة الأمة التي ظل يعانيتها ثلاثة أيام لم يكتحل فيها بنوم، ولو فعل ذلك لأنجى نفسه من مثل ذلك الاتهام، ولربما . لو لم يُخرج نفسه . يقع عليه اختيار بقية أصحابه ليكون الخليفة المنتظر.

ولو أراد ابن عوف أن يحابي أحداً لحابى ابن عمه سعد بن أبي وقاص الزهري، فهو أقرب إليه من عثمان؛ ولكنه شاور الناس، فما وجدهم يعدلون أحداً بعثمان، ثم علي (رضي الله عنهما)، مع تفضيل أكثرهم عثمان؛ لما فيه من لين وسماحة بعد شدة عمر ﷺ.

والحق الذي لا مرية فيه أن عثمان لم يصير خليفة إلا باختيار الأمة، ورضاهم واتفاقها عليه، وليس بمجرد تقديم عبد الرحمن بن عوف له، وفي ذلك يقول الإمام أحمد: "ما كان في القوم من بيعة عثمان كانت بإجماعهم... وإلا لو قدر أن عبد الرحمن بايعه ولم يبايعه علي ولا غيره من الصحابة أهل الشوكة لم يصير إماماً".

ويضيف الإمام أحمد: "وأقام عبد الرحمن ثلاثاً حلف أنه لم يغتمض فيها بكبير نوم يشاور السابقين الأولين والتابعين لهم

بإحسان، ويشاور أمراء الأنصار... فأشار عليه المسلمون بولاية عثمان، وذكر أنهم كلهم قدموا عثمان فقدموه، لا عن رغبة أعطاهم إياها، ولا عن رهبة أخافهم بها".

وثمة روايات ضعيفة تزعم أن علياً تلقى في بيعة عثمان لاعتراضه عليها، فذكره عبد الرحمن بن عوف بعهدده الذي قطعه على نفسه وقال له: "ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً"، فعند ذلك بادر علي إلى مبايعة عثمان.

وهي روايات ضعيفة كما قدمنا، والصواب الذي تطمئن إليه النفس، ونجده منسجماً مع شخصية علي بن أبي طالب وأخلاقه النبيلة أنه كان. كما يذكر ابن كثير. أول من بايع عثمان بالخلافة من أهل الشورى، ويستبعد ابن كثير الروايات التي قيلت في احتجاجه على انتخاب عثمان^(١).

(١) راجع فيما تقدم: تاريخ الطبري ٣٤/٥، وما بعدها، الكامل لابن الأثير ٦٨/٣، وما بعدها، تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص: ١٨١، ١٨٢، النظريات السياسية الإسلامية لمحمد ضياء الدين الرئيس، ص: ٢٤١، د/ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص: ٢٧٣، وما بعدها، د/ حمدي شاهين: الدولة والمجتمع في العصر الأموي، ص: ٥٤.

علي في خلافة عثمان

كان من الطبيعي وفي ظل المجتمع الإسلامي المفتوح الذي يسمح بالنقد ولا يجد في ذلك حرجاً، ولو كان النقد موجهاً لكبار المسؤولين على غرار ما كان يحدث في عهد عمر؛ حيث تجلت الحرية الحقيقية في أسمى معانيها وفي أجمل مظاهرها بحيث أصبحت حرية النقد وحرية الفرد وعدالة الحكم التي سادت في عهد خلفاء الرسول ﷺ أنشودة يتغنى بها الناس إلى عهدنا الحاضر..

نقول: كان من الطبيعي أن يكون الإمام علي كرم الله وجهه كواحد من أفراد الرعية من الناقدين لسياسة عثمان وبطانته، التي حجبته عن قلوب رعاياه، ناصحاً للخليفة بإقصاء تلك البطانة وتبديل السياسة التي تزينها له وتغريه باتباعها، وصم الآذان عن الناصحين له بالإقلاع عنها.

الماخذ على سياسة عثمان بن عفان ؓ:

وكان مما أخذ علي على عثمان بن عفان ؓ أول مبايعته بالخلافة أنه ترك القصاص من عبيد الله بن عمر الذي كان يقتنع بأن مقتل أبيه عمر بن الخطاب لم يكن جريمة فردية اقترفها أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة؛ بل كان مؤامرة مدبرة نسج خيوطها ثلاثة نفر هم: الهرمزان الفارسي وجفينة أحد نصارى الحيرة وأبو لؤلؤة. وكان الذي قوى اقتناعه بتآمر هؤلاء على أبيه ما شهد به عبد الرحمن بن عوف من أنه رأى الخنجر الذي طعن به عمر مع الهرمزان وجفينة عشيّة الحادث الذي رَوَّع المسلمين، وأدلى بأوصافه فوجدها المسلمون مطابقة للخنجر الذي طعن به أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب، فلم يملك عبيد الله نفسه وتقلد سيفه فقتل الهرمزان وجفينة وابنة صغيرة لأبي لؤلؤة تدعى الإسلام.

وقد غضب الناس من اندفاع عبيد الله، ورأوا في تصرفه مجافاة لشريعة الإسلام، فحبسوه حتى يرى فيه الخليفة الجديد رأيه، فعقد عثمان مجلساً للمشاورة حضره أكابر الصحابة، فأشار علي بن أبي طالب بقتل عبيد الله قصاصاً، فاعترض البعض قائلين: قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم؟! فرأى عثمان - خروجاً من هذا المأزق - أن يعتبر نفسه وليّ الذين قتلوا، فقبل فهيم الدية، وأداها من ماله.

ومن المبررات التي سيقى للدفاع عن عثمان في ذلك الأمر قول أبي بكر بن العربي: "ولعل عثمان كان لا يرى علي عبيد الله حقاً؛ لما ثبت عنده من حال الهرمزان وفعله"^(١).

ويعلق د/ محمد حسين هيكل على الرأي الذي انتهى إليه الخليفة عثمان ؓ بشأن هذه القضية قائلاً:

"وكان هذا الرأي من عثمان عين الحكمة، فهو لم يُعَفِّ عبيد الله من جريمة جريمته، وهو لم يأمر بتحقيق لأنه إذا أثبت مؤامرة الهرمزان وجفينة وفيروز أثار ثائرة الفرس والنصارى، ثم لم يبرئ عبيد الله من قتل ابنة أبي لؤلؤة عمداً في غير إثم وبغير حق، وقد استراح الناس جميعاً لرأي عثمان إلا جماعة دفعتهم الحمية للتعريض به ونقده، من هؤلاء زياد بن عبيد البياض

(١) القاضي أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم، ص: ٢٨٩. (٢٩)

الذي انطلق يقول الشعر يسيء به إلى عبيد الله وينقد به حكم عثمان، وقد جاء به عثمان وأمره أن يكف عن هذا التعريض فكف، وبذلك نامت فتنة لم يكن من الخير أن تستيقظ، وانصرف المسلمون في أرجاء الإمبراطورية إلى مألوف حياتهم قبل مقتل عمر^(١).

وكان مما اتهم به عثمان: محاباته لبني أمية، وأنه أطلق أيديهم في شئون الدولة، ويمكن لهم فيها، فنقم الناس منه هذه السياسة وقالوا:

"إنه ولي أمور المسلمين من لا يصلح للولاية، حتى ظهر من بعضهم الفسوق، ومن بعضهم الخيانة، وقسم الولايات بين أقاربه وعُوتب على ذلك مراراً فلم يرجع، واستعمل الوليد بن عقبة بن أبي معيط (وهو أموي) على الكوفة حتى ظهر منه شرب الخمر، واستعمل سعيد بن العاص (وهو أموي) على الكوفة، وظهر منه ما أدى إلى إخراجها منها، وولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر حتى تظلم منه أهلها (وابن أبي سرح هو أخو عثمان من الرضاع)، وكتب إليه أن يستمر على ولايته سرّاً خلاف ما كتب إليه جهراً، وولى معاوية الشام، فأحدث من الفتن ما أحدث، وولى عبد الله بن عامر كيريز بن ربيعة الأموي (وهو ابن خالة عثمان) البصرة، ففعل من المناكير ما فعل، وولى أمره مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، وألقى إليه مقاليد أموره، ودفع إليه خاتمه وجعله كاتبه وصاحب تديره، وكان عثمان يؤثر أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال، حتى إنه دفع إلى أربعة نفر من قريش - زوجهم بناته - أربعمئة ألف دينار، ودفع إلى مروان ألف ألف دينار، وطرد رسول الله ﷺ الحكم بن أبي العاص عن المدينة (وهو عم عثمان وأبو مروان بن الحكم) فلم يزل طريداً في زمن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما ولي عثمان آواه وردّه إلى المدينة.."^(٢).

وكذلك فقد جمع القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه "العواصم من القواصم" طائفة من التهم الباطلة التي افترى بها على عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ فقال:

"قالوا معتدين متعلقين برواية كذابين: جاء عثمان في ولايته، بمظالم ومناكير، منها: ضربه لعمار حتى فتق أمعاءه، ولا بن مسعود حتى كسر أضلاعها، ومنعه عطاءه، وابتدع في جمع القرآن وتأليفه، وفي حرق المصاحف، وحمى الحمى، وأجلى أبا ذر إلى الريدة، وأخرج إلى الشام أبا الدرداء، ورد الحكم بعد أن نفاه رسول الله ﷺ، وأبطل سنة القصر في الصلوات في السفر، وولى معاوية ومروان ممن لم يكن من أهل الولاية، وأعطى مروان خمس إفريقية، وكان عمر يضرب بالدرّة، وضرب هو بالعصا، وكتب مع عبده على جهله كتاباً إلى ابن أبي سرح في قتل من ذكر فيه، وعلا على درجة رسول الله ﷺ في المنبر، وقد انحط عنها أبو بكر وعمر، ولم يحضر بداراً وانهمز يوم (حنين) وفر يوم (أحد)، وغاب عن (بيعة الرضوان)، وولى الوليد بن عقبة وهو فاسق ليس من أهل الولاية"^(٣).

(١) د/ محمد حسين هيكل، عثمان بن عفان، ص: ٥١.

(٢) د/ طه عبد المقصود: دراسات في تاريخ الخلافة الأموية، ص: ٣٢.

(٣) أبو بكر بن العربي: العواصم من القواصم، ص: ٢٨٠، ٢٨١. (٣٠)

وقد كفانا ابن العربي مؤنة تنفيذ هذه الاتهامات، وإظهار بطلانها، ولأهمية كلام ابن العربي في هذا الشأن نورد ملخصاً؛ قال ابن العربي في الرد على التهم المشار إليها:

"هذا كله باطل سنداً وممتناً، أما قولهم: جاء عثمان بمظالم ومناكير فباطل، وأما ضربه لعمار وابن مسعود، ومنعه عطاءه فزور، وضربه لعمار إفك مثله، ولو فتق أمعائه ما عاش أبداً، وقد اعتذر عن ذلك العلماء بوجوه لا ينبغي أن يشتغل بها؛ لأنها مبنية على باطل، ولا ينبغي حق على باطل، ولا يذهب الزمان في مماشاة الجهال، فإن ذلك لا آخر له. وأما جمع القرآن فتلك حسنته العظمى، وخصلته الكبرى، وإن كان وجدها كاملة، ولكنه أظهرها، ورد الناس إليها، وحسم مادة الخلاف فيها، وكان نفوذ وعد الله بحفظ القرآن على يديه.

روى الأئمة بأجمعهم أن زيد بن ثابت قال: (أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني، فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقرء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقرء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن قلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر)، قال زيد: قال لي أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرى، فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمروني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبع القرآن أجمعه من العصب والخاف، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ }^(١) حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر في حياته ثم عند حفصة بنت عمر حتى قدم حذيفة بن اليمان على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفرغ حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه مما نسب إلى القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

وأما ما روى من أنه حرقها أو خرقها. بالحاء المهملة أو الخاء المعجمة وكلاهما جائز. فإنه فعل ذلك لأنه كان في بقائها فساد، أو كان فيها ما ليس من القرآن، أو على غير نظمه، فقد سلم في بذلك الصحابة كلهم.

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

وأما نفيه أبا ذر إلى الريزة فلم يفعل، كان أبو ذر زاهداً، وكان يقرع عمال عثمان، ويتلو عليهم: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} ^(١)، ويأمرهم يتسعون في المراكب والملابس حين وجدوا فينكر ذلك عليهم، ويريد تفريق جميع ذلك من بين أيديهم، وهو غير لازم، قال ابن عمر وغيره، من الصحابة وهو الحق: "إن ما أدت زكاته فليس بكنز"، فوقع بين أبي ذر، ومعاوية كلام بالشام، فخرج إلى المدينة فاجتمع إلى الناس، فجعل يسلك تلك الطريق فقال له عثمان: "لو اعتزلت" معناه: أنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس، فإن للخلطة شروطاً، وللعزلة مثلها، ومن كان على طريق أبي ذر، فحاله يقتضي أن ينفرد بنفسه، أو يخالط ويسلم لكل أحد حاله مما ليس بحرام في الشرعية)، فخرج إلى الريزة زاهداً فاضلاً، ولم يكن يصلح له إلا ذلك، لطريقته.

ووقع بين أبي الدرداء، ومعاوية كلام، وكان أبو الدرداء زاهداً فاضلاً، قاضياً لهم، فلما اشتد في الحق، وأخرج طريقة عمر في قوم لم يحملوها عزلوه، فخرج إلى المدينة، وهذه كلها مصالح لا تقدر في الدين، ولا تؤثر في منزلة أحد من المسلمين بحال.

وأما رد الحكم فلم يصح، وقال علماؤنا في جوابه: قد كان أذن له فيه رسول الله ﷺ، وقال لأبي بكر وعمر، فقالا له: إن كان معك شهيد ردناه، فلما ولى قضى بعلمه في رده، وما كان عثمان ليصل مهجور رسول الله ﷺ، ولو كان أباه، ولا لينقض حكمه.

وأما ترك القصر فاجتهاد، إذ سمع أن الناس افتتنوا بالقصر، وفعلوا ذلك في منازلهم، فرأى أن السنة ربما أدت إلى إسقاط الفريضة فتركها مصلحة؛ خوف الذريعة، مع أن جماعة العلماء قالوا: إن المسافر مخير بين القصر والإتمام، واختلف في ذلك الصحابة.

وأما معاوية فعمرو ولاه، وجمع له الشامات كلها، وأقره عثمان؛ بل ورد إنما ولاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه؛ لأنه ولى أخاه يزيد، واستخلفه يزيد فأقره ذلك عمر، لتعلقه بولاية أبي بكر، لأجل استخلاف واليه له، فتعلق عثمان بعمر وأقره. وأما عبد الله بن كريز فولاه كما قال؛ لأنه كريم العمت والخالات.

وأما تولية الوليد بن عقبة؛ فلأن الناس على فساد في النيات أسرعوا إلى السيئات قبل الحسنات، قال عثمان: ما وليت الوليد لأنه أخي، وإنما وليته لأنه ابن أم حكيم البيضاء عمة رسول الله ﷺ، وتوأمة أبيه، وسيأتي بيانه إن شاء الله، والولاية اجتهاد، قد عزل عمر سعد بن أبي وقاص، وقدم أقل منه درجة.

وأما إعطاؤه خمس إفريقية لواحد، فلم يصح، على أنه قد ذهب مالك وجماعة إلى أن الإمام يرى رأيه في الخمس، وينفذ فيه ما أداه إليه اجتهاده، وأن عطاءه لواحد جائز.

وأما قولهم: إنه ضرب بالعصا؛ فما سمعته ممن أطاع ولا عصا، وإنما هو باطل يحكى، وزور ينشئ، فيا لله وللنهي.

(١) سورة التوبة، آية: ٣٤.

وأما علوه على درجة رسول الله ﷺ، فما سمعته ممن فيه تقية، وإنما هي إشاعة منكر ليروى ويذكر فيتغير بها قلب من يتغير، قال علماؤنا: ولو صح ذلك فما في هذا ما يحل دمه، ولا يخلو أن يكون ذلك حقاً، فلم ينكره الصحابة عليه إذ رأت جوازه ابتداء، أو لسبب اقتضى ذلك، وإن كان لم يكن فقد انقطع الكلام.

وأما انهمازه يوم حنين، وفراره يوم أحد ومغيبه عن بدر، وبيعة الرضوان، فقد بين عبد الله بن عمر، وجه الحكم في شأن البيعة، وبدر، وأحد، وأما يوم حنين فلم يبق إلا نفر يسير مع رسول الله ﷺ، ولكن لم يجر في الأمر تفسير من بقى ممن مضى في الصحيح، وإنما هي أقوال، منها أنه ما بقى معه إلا العباس وابناه عبد الله، وقتهم، فناهيك بهذا الاختلاف، وهو أمر قد اشترك فيه كثير من الصحابة، وقد عفا الله عنه ورسوله، فلا يحل المؤاخذه على ما أسقطه الله ورسوله والمؤمنون.

وقد أخرج البخاري أيضاً من حديث عثمان بن عبد الله بن موهب، قال: جاء رجل من أهل مصر يريد حج البيت، فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء القوم؟ فقالوا: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: يا ابن عمر إني سائلك عن شيء فحدثني، هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قال: نعم، قال: تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد؟ قال: نعم، قال: تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهد؟ قال: نعم، قال: الله أكبر، قال ابن عمر: تعال أبين لك، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله قد عفا عنه، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته زينب بنت رسول الله ﷺ، وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا، وسهمه، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان (وكان بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان) إلى مكة فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: (هذه يد عثمان) فضرب بها على يده، وقال: (هذه لعثمان) ثم قال ابن عمر: اذهب بها الآن معك.

وأما أمر الحمى فكان قديماً، فقال: إن عثمان زاد فيه لما زادت الرعاية، وإذا جاز أصله للحاجة إليه جازت الزيادة فيه لزيادة الحاجة.

وأما قول القائل في مروان، والوليد، فشديد عليهم، وحكمهم عليهم بالفسق، فسق منهم، ومروان رجل عدل من كبار الأمة عند الصحابة، والتابعين، وفقهاء المسلمين، أما الصحابة فإن سهل بن سعد الساعدي روى عنه، وأما التابعون فأصحابه في السنن، وإن كان جازهم باسم الصحبة في أحد القولين، وأما فقهاء الأمصار فكلهم على تعظيمه، واعتبار خلافه، والتلفت إلى فتواه، والانقياد إلى روايته، وأما السفهاء من المؤرخين والأدباء فيقولون على أقدارهم.

وأما الوليد فقد روى بعض المفسرين أن الله سماه فاسقاً في قوله: {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ} (١)، فإنها في قولهم نزلت فيه، أرسله النبي ﷺ مصداقاً إلى بني المصطلق فأخبر عنهم أنهم ارتدوا، فأرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد، فثبت في أمرهم فبين بطلان قوله، وقد اختلف فيها، فقليل نزلت في ذلك، وقيل في علي والوليد في قصة أخرى، وقيل: إن الوليد سبق يوم الفتح في جملة الصبيان إلى رسول الله ﷺ فمسح رؤوسهم، وبرك عليهم إلا هو، فقال:

(١) سورة الحجرات، آية: ٦.

إنه كان على رأسي خلوق، فامتنع من مسه فمن يكون في هذا السن يرسل مصداقاً؟ وبهذا الاختلاف يسقط العلماء الأحاديث القوية، فكيف يفسق رجل يتمثل هذا الكلام؟ فكيف برجل من أصحاب محمد ﷺ؟
وأما حدّه في الخمر، فقد حدّ عمر قدامة بن مظعون على الخمر وهو أمير وعزله، ثم قيل له: صالحه، وليست الذنوب مسقطه للعدالة إذا وقعت منها التوبة، وقد قيل لعثمان: إنك وليت الوليد؛ لأنه أخوك لأمك أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، فقال: بل لأنه ابن عمّة رسول الله ﷺ أم حكيم البيضاء جدة عثمان، وجدة الوليد لأمهما أروى المذكورة، وكانت أم حكيم توأمة عبد الله أبي رسول الله ﷺ، وأي حرج على المرء أن يولي أخاه أو قريبه؟" (انتهى كلام ابن العربي) ^(١).

وبالرغم من ذلك كله كان علي رضي الله عنه أول من يسارع بالغوث كلما هجم الثوار على تلك البطانة وهموا بإقصائها عنوة من جوار الخليفة... فقد كان يرى عليه واجباً أدبياً ودينياً نحو الإمام وجمع الكلمة، وكان نابذاً للفرقة كارهاً للفوضى بدليل أنه فرغ ولديه الحسن والحسين، بعدما تفاقمت الأوضاع وبدت نذر الشر للدفاع عن الخليفة وصد الثوار عنه... لقد كان علي رضي الله عنه في موقف لا يحسد عليه فهو من ناحية يرى نفسه مسئلاً عن الخليفة أمام الثوار... وفي الوقت نفسه مسئلاً عن الثوار أمام الخليفة...

جاء الثوار مرة من مصر خاصة يتخطون الخليفة إليه، ويعرضون الخلافة عليه، فلقبهم أسوأ لقاء، وأنذرهم لئن عادوا إليها لكونن جزأؤهم عنده وعند الخليفة القائم جزاء العصاة المفسدين في الأرض...

^(١) العواصم من القواصم، ص: ٢٨١ وما بعدها.

عثمان بن عفان يدافع عن نفسه في خطبة جامعة

ولما رأى عثمان رضي الله عنه اجتماع الثوار عليه، وتوافدهم من الأمصار المختلفة؛ لإجباره على التنازل عن الخلافة أو قتله أرسل إليهم رجلين أحدهما من بني مخزوم، والآخر من بني زهرة ليقفا على سبب مجيئهم إلى المدينة، فلما التقيا بهم، قالوا لهما: نريد أن نذكر له (أي لعثمان) أشياء قد زرعتها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أننا قررناه بها، فلم يخرج منها ولم يتب، ثم نخرج كأننا حجاج حتى نقدم فنحيط به، فنخلعه، فإن أبي قتلناه، ثم عاد الرجلان إلى عثمان وأخبراه بما سمعاه عن هؤلاء القوم، فضحك وقال: "اللهم سلم هؤلاء، فإنك إن لم تسلمهم شقوا".

دعا عثمان المسلمين إلى صلاة جامعة، فاقبلوا جميعاً إلى مسجد المدينة، وفيهم صحابة الرسول ﷺ، فوقف عثمان فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وأخبرهم خبر القوم، ثم قام الرجلان اللذان كان عثمان قد بعثهما للوقوف على حقيقة أغراض الوافدين إلى المدينة، فقالا لعثمان: "اقتلهم، فإن رسول الله ﷺ قال: "من دعا إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله، فاقتلوه"، فقال عثمان: "بل نغفو ونقيل ونبصرهم بجهدنا، ولا نحاد أحداً حتى يركب حداً أو ييدي كفراً، إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتهم إلا أنهم زعموا أنهم يذكرونها ليوصلوها على عند من لا يعلم".

ثم أخذ عثمان يسوق ما اتهمه به هؤلاء الثوار، ويدافع عن نفسه فيرد الاتهام عنه، فقال: "قالوا: أتم الصلاة في السفر وكانت لا تتم، ألا وإني قدمت بلداً فيه أهلي، فأتممت لهذين الأمرين أو كذلك؟" فقالوا: "اللهم نعم"، وانتقل عثمان إلى الاتهام الثاني، فقال: "وقالوا: وحيت حمى، وإني والله ما حميت حمى قبلي، والله ما حموا شيئاً لأحد ما حموا إلا غلب عليه أهل المدينة، ثم لم يمنعوا من رعية أحداً، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع، ثم ما منعوا ولا نحووا منها أحداً إلا من ساق درهماً، وما لي من بعير غير راحلتين... وإني قد وليت وإني أكثر العرب بعيراً وشاة، فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي، أكذلك؟"، فقال له الحاضرون: "اللهم نعم"، وطلبوا منه أن يقتل هؤلاء الثوار؛ فأبى عثمان ومضى يفند اتهاماتهم له؛ فقال: "وقالوا: إني رددت الحكم بن العاص. وقد سيره رسول الله ﷺ. والحكم مكي سيره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف، ثم رده رسول الله ﷺ فرسول الله سيره، ورسول الله رده... أكذلك؟"، فأجاب الحاضرون: "اللهم نعم"، ثم قال عثمان: وقالوا استعملت الأحداث، ولم أستعمل إلا مجتمعاً محتملاً مرضياً، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه، وهؤلاء أهل بلده، ولقد ولي من قبلي أحدث منهم، وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشد مما قيل لي في استعماله أسامة أكذلك؟" فأجاب الحاضرون في المسجد: نعم.

واصل عثمان تفنيد الاتهامات التي وجهت إليه فقال: "وقالوا إني أحب أهل بيتي وأعطيتهم، فأما حي فإنه لم يمل معهم على جور، بل أحمل الحقوق عليهم، وأما إعطاؤهم، فإني أعطيتهم من مالي، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس، ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيدة من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر. رضي الله عنهما. وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفنى عمري وودعت الذي لي في أهلي، قال

الملحدون ما قالوا، وإني والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله، ولقد رددته عليهم وما قدم عليّ إلا الأخماس، ولا يحل لي منها شيء".

استمع المسلمون الذي شهدوا هذا الاجتماع بالمسجد إلى دفاع عثمان عن سياسته، ورأوا أن يقتل عثمان كل من رفع لواء العصيان والثورة، غير أن عثمان آثر العفو عنهم ليعودوا إلى بلادهم، ولا غرو فقد كان العفو والتسامح من أبرز صفات عثمان^(١).

عاد الثوار كل إلى مصره؛ ولكنهم ما لبثوا أن أقبلوا على المدينة مرة أخرى وحجتهم ناهضة، ودليل التهمة التي يتهمون بها عثمان في أيديهم... جاءوه بالخطاب الذي وجدوه في طريق مصر مع غلام عثمان يأمر عامله بقتلهم بعد أن وعدهم خيراً... وأجابهم إلى تولية العامل الذي يرضيهم، فلم تخدعه حجتهم الناهضة ولم يشأ أن يملي لهم في ثورتهم واحتجاجهم من جراء ذلك الخطاب المشكوك فيه وجعلهم متهمين... مسئولين... بعد أن كانوا متهمين.. سائلين.. فقال لهم: وما الذي جمعكم في طريق واحد... وقد خرجتم من المدينة متفرقين.. كل منكم إلى وجهة؟!!

وكانت حيرة علي بين التقريب والإبعاد أشد من حيرته بين الخليفة والثوار، فكان يؤمر تارة بمبارحة المدينة ليكشف الناس عن اهتاف باسمه، ويستدعي إليها تارة أخرى ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة.. فلما تكرر ذلك قال لابن عباس الذي حمل إليه رسالة عثمان بالخروج إلى ماله في ينبع: يا ابن عباس ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جماً ناضحاً بالغرب (الدلو) أقبل وأدبر، بعث إلى أن أخرج، ثم بعث إلى أن أقدم، ثم هو الآن يبعث إلى أن أخرج... والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً...

ثم بلغ السيل الزبي، كما قال عثمان عليه السلام... فكتب إلى علي يذكر له ذلك، ويقول: إن أمر الناس ارتفع من شأني فوق قدرتي وزعموا أنهم لا يرجعون دون دمي وطمع في من لا يدفع عن نفسه.

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكلي وإلا فأدركني ولما أمزق

فعاد علي وجهه في إنقاذ الخليفة جهده... ولكنه يعالج داء استعصى دواؤه... وابتلى به أطباؤه.. ووعد الخليفة وعده الأخير ليصلحن الأحوال ويبدلن العمال...

وأحاطت به بطانته كدأبها في أثر كل وعد من هذه الوعود، تنهات أن ينجز، وتخيفه طمع الناس فيه، إن هو أنجز ما وعدهم حين توعدوه...

ويلق الأستاذ العقاد على هذه الأحداث فيقول:

"وكانت المرأة أصدق نظراً من الرجال في هذه الغاشية التي تضل فيها العقول، فأشارت عليه امرأته السيدة نائلة باسترضاء علي والإعراض عن هذه البطانة.. ولم يكن أيسر على بطانته من إقناعه بضعف هذا الرأي بعد سماعه من امرأة ضعيفة... فكان مروان يقول: والله لإقامة علي خطيئة نستغفر الله منها أجمل من توبة في تخوف عليها.. وكان عثمان عليه السلام يأذن لمروان ليكلم الناس فلا يكلمهم إلا بالزجر والإصرار كما قال لهم يوماً: ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم

(١) د/ محمد حسين هيكل: عثمان بن عفان، ص: ١١٨. ١٢٠. (٣٦)

لنهب.. شأهت الوجوه.. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا... ارجعوا إلى منازلكم فإن الله ما نحن مغلوبون على ما في أيدينا...

هجم الثوار على باب الخليفة . فمنعهم الحسن بن علي وابن الزبير ومُجد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفة من أبناء الصحابة.

واجتلدوا فمنعهم عثمان وقال لهم: أنتم في حل من نصرتي، وفتح الباب ليمنع الجلاذ حوله، ثم قام رجل من أسلم يناشد عثمان أن يعتزل فرماه كثير بن الصامت الكندي بسهم فقتله... فجن جنون الثوار يطلبون القاتل من عثمان ولكنه يأبى أن يسلمه إليهم، ويقول لهم: لم أكن لأقتل رجلاً نصرتي وأنتم تريدون قتلي... وعز على الثوار أن يدخلوا من الباب الذي كان قد أغلق بعد فتحه.. فافتحموا الدار من الدور التي حولها... وأقدموا على فعلتهم النكراء بعد إحجام كثير...

ونقل الخبر إلى المسجد وفيه (عليّ) جالس في نحو عشرة من المصلين، فراعه منظر القادم وسأله: ويحك!! ما وراءك؟.. قال: والله لقد فرغ منه الرجال.. فصاح به: تبّاً لكم آخر الدهر وأسرع إلى دار الخليفة المقتول.. فلطم الحسن وضرب الحسين وشم مُجد بن طلحة وعبد الله بن الزبير.. وجعل يسأل ولديه: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟ فأجاب مُجد بن طلحة: لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن... لو دفع مروان ما قتل.

وثمة ملاحظات لا بد من إثباتها في هذا السياق لإلقاء مزيد من الضوء على تلك النهاية الفاجعة التي آلت إليها حياة الشهيد عثمان بن عفان، وبيان براءة الصحابة جميعاً وعلى رأسهم الإمام علي من دمه:

أولاً: لقد رفض عثمان بن عفان ﷺ الاستجابة لمطلب الثوار والمتمردين بالتنازل عن الخلافة؛ حتى لا تصير سنة كلما كره قوم خليفتهم خلعوه؛ وفي ذلك يقول ابن العربي:

ولقد دخل عليه ابن عمر فقال: انظر ما يقول هؤلاء، يقولون: اخلع نفسك أو نقتلك، فقال له: أمحمد أنت في الدنيا؟ قال: لا، قال: هل يزيدون على أن يقتلوك؟ قال: لا، قال: هل يملكون لك جنة أو ناراً؟ قال: لا، قال: فلا تخلع قميص الله عنك، فتكون سنة، كلما كره قوم خليفتهم خلعوه أو قتلوه" (١).

ثانياً: أثر عثمان بن عفان التضحية بحياته على إراقة دماء المسلمين في فتنة لا يعلم مداها وعاقبتها إلا الله؛ فعن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال:

كنت مع عثمان في الدار فقال: أعزم على كل من رأى أن عليه سمعاً وطاعة، إلا كفّ يده وسلاحه، ثم قال: قم يا ابن عمر. وعلى ابن عمر سيفه متقلداً. فاجر بين الناس، فخرج ابن عمر، ودخلوا فقتلوه، وجاء زيد بن ثابت فقال له: إن هؤلاء الأنصار بالباب يقولون: إن شئت كنا أنصار الله، مرتين، قال: لا حاجة لي في ذلك كفوا، وقال له أبو هريرة: اليوم طاب الضرب معك، قال: عزمت عليك لتخرجن، وكان الحسن بن علي آخر من خرج من عنده، فإنه جاء الحسن والحسين، وابن عمر، وابن الزبير، ومروان، فعزم عليهم في وضع سلاحهم، وخروجهم، ولزوم بيوتهم، فقال له ابن الزبير ومروان: نحن نعزم على أنفسنا ألا نبرح ففتح عثمان الباب، ودخلوا عليه في أصح الأقوال، فقتله الموت الأسود، وقيل:

(١) العواصم من القواصم، ص: ٢٩٤.

أخذ ابن أبي بكر بلحيته وذبحه رومان، وقيل: بل قتله رجل من أهل مصر يقال له حمار، فسقطت قطرة من دمه على المصحف على قوله تعالى: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ} ^(١) فإنها فيه ما حكت إلى الآن.

ولذلك يقول القاضي أبو بكر بن العربي: "إن أحداً من الصحابة لم يسع عليه ولا قعد عنه، ولو استنصر ما غلب ألف أو أربعة آلاف غرباء عشرين ألفاً بلديين أو أكثر من ذلك؛ ولكنه ألقى بيده إلى المصيبة" ^(٢). وقال كذلك:

"وأمر عثمان كله سنة ماضية، وسيرة راضية، فإنه تحقق أنه مقتول بخبر الصادق له بذلك، وأنه بشره بالجنة على بلوى تصيبه، وأنه شهيد، وروى أنه قال له في المنام: إن شئت نصرتك، أو تفطر عندنا الليلة، وقد انتدب المردة والجهلة إلى أن يقولوا: إن كل فاضل من الصحابة كان عليه ساعياً مؤلباً، وبما جرى عليه راضياً، واخترعوا كتاباً فيه فصاحة وأمثال، كتب عثمان به مستصرخاً إلى علي، وذلك كله مصنوع ليوغر قلوب المسلمين على السلف الماضين، والخلفاء الراشدين. قال القاضي أبو بكر رحمته الله: فالذي تنحل من ذلك أن عثمان مظلوم، محجوج بغير حجة، وأن الصحابة برآء عن دمه بأجمعهم؛ لأنهم أتوا إرادته، وسلموا له رأيه في إسلام نفسه" ^(٣).

(١) سورة البقرة، آية: ١٣٧.

(٢) العواصم من القواصم، ص: ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٣) السابق، ص: ٢٩٨.

كيف صارت الخلافة لعلي؟

روى سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه: بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان وأميرها الغافقي بن حرب يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر... والمصريون يلحون على "علي" وهو يهرب إلى الحيطان . البساتين . ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه... والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم... فقالوا فيما بينهم: لا نولي أحداً من هؤلاء الثلاثة... فمضوا إلى سعد بن أبي وقاص وقالوا: إنك من أهل الشورى، فلم يقبل منهم... ثم راحوا إلى ابن عمر، فأبى عليهم.. فحاروا في أمرهم، ثم قالوا: إن نحن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير أمره اختلف الناس في أمرهم ولم نسلم... فرجعوا إلى علي فألحوا عليه.. وأخذ الأشر بيده فبايعه الناس... وكلهم يقولون: لا يصلح لها إلا علي...

ولما كان يوم الجمعة وصعد إلى المنبر بايعه من لم يبايعه بالأمس وكان أول من بايعه طلحة بيده الشلاء... فقال قائل: إنا لله وإنا إليه راجعون... ثم الزبير، ثم قال الزبير: إنما بايعت علياً واللعج^(١) على عنقي والسلام.

وينكر القاضي أبو بكر ابن العربي أن يكون الزبير، وطلحة قد بايعا مكرهين، ويشكك في الرواية الواردة في ذلك، كما ينكر الرأي القائل بأن الصحابة قد بايعوا علياً على أن يقتل قتلة عثمان قائلاً: هذا لا يصح في شرط البيعة، إنما بايعوه على الحكم بالحق، وهو أن يحضر الطالب للدم ويحضر المطلوب، وتقع الدعوى ويكون الجواب، وتقوم البيعة ويقع الحكم..

ويؤكد ابن العربي أن أحداً من الصحابة لم يتخلف عن بيعة علي، وإن تخلف بعضهم عن نصرته حين وقع النزاع بينه وبين أصحاب الجمل، وبينه وبين معاوية؛ لأن بيعته واجبة أما نصرته فمسألة اجتهادية تختلف فيها الأنظار وتباين الرؤى^(٢). لقد قبل علي عليه السلام الخلافة على مضض... قبلها وهي أشد ما تكون عبئاً... وامتحاناً.. كما قبلها من قبل أخواه أبو بكر وعمر.. لقد جاء الناس إليه فزعين (وما راعه إلا والناس تعرض الأمر عليه، ينثالون عليه من كل جانب، حتى لقد وطئ الحسنان (الحسن والحسين) وشق عطفاه، مجتمعين حوله كربيضة الغنم، يدعون إلى مبايعته، وهو يصيح بهم: "دعوني والتمسوا غيري.. فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الإمامة قد أغامت (أظلمت) والمحجة قد تنكرت، فإن أجبتمكم ركبتمكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب... وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم... وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً..".

فعلي إذن قد تولى الخلافة في ظروف نكدة... وعلى كره منه... وإنقاذاً لأمة يوشك عقدها أن ينفطر.

سياسة علي:

ثم بدأ علي بتنفيذ سياسته.. التي كان أبرز دعائمها أو مهامها الأولى من وجهة نظره لإصلاح الخلل ورأب الصدع:

* المساواة بين الناس في المال وعدم المحاباة لذوي القربى... حتى تستريح نفوس الناس.

(١) اللج: هو السيف.

(٢) العواصم من القواصم، ص: ٣٠٠.

* الأخذ برأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عدم السماح للصحابة الكبار بالانسياح في الأمصار وحجزهم إلى جواره في المدينة حتى لا يفتتن بهم الناس.

* عزل الولاة الذين دارت حولهم الشبهات... وكانوا أسباب الفتنة.

* إعادة القطائع التي منحها عثمان لبعض أقربائه إلى بيت المال؛ درءاً للشبهات، وتهذئة للخواطر وأخذاً بالأحوط من الرأي.

* محاكمة قتلة عثمان... التي كان البعض وبخاصة المتاجرون بقميص عثمان يعتبرونها المهمة الأولى.. بينما كان علي يعتبرها المهمة الأخيرة. ويرى علي رضي الله عنه أن ما يتعلق بالأمة أولى بالتقديم... وأما القصاص لمن قُتِلَ فبالرغم من ضرورته، فهو ليس المشكلة الكبرى التي تستحق أن تحمل من أجلها أمور الأمة.

أجل... لقد قبل على الخلافة كما يقبل الإنسان القضاء الذي يضعه في مكان المنقذ لأتمته.. فعلى من هذا الجيل الفريد الفذ الذي ينظر للحكم على أنه تكليف لا تشريف؛ لأن هذا الجيل لم يكن . بحكم إيمانه . يستطيع أن يظلم... ولأن هذا الجيل . بحكم تطبيق الشريعة . لم يكن يستطيع أن يطغى أو يجور أو يسرق أموال الأمة ويحتجزها لنفسه. ويثور تساؤل مهم يتعلق بالحكم على خلافة علي وهو:

هل تعد خلافة علي بالصورة التي انعقدت بها خلافة شرعية؟! يقول أستاذنا الدكتور/ ضياء الدين الريس في الإجابة عن هذا التساؤل:

"أما أهل السنة فيرون أن خلافته انعقدت وهي صحيحة؛ لأن البيعة تمت له من أهل المدينة أو أكثرهم، ولأن علياً . كرم الله وجهه . كان أفضل الصحابة إذ ذاك وأكملهم شروطاً، ومن المهاجرين الأولين الذين أظهر الله الإسلام على أيديهم، ولقربته من الرسول (عليه الصلاة والسلام)، وبناء على ذلك فهم يعتبرونه الخليفة الرابع من الخلفاء الراشدين، وجمهور المعتزلة يتفقون أيضاً مع أهل السنة في ذلك، ما عدا اثنين منهم خالفا في الرأي، وهما أبو بكر الأصم وهشام بن عمرو الفوطي؛ لأنهما يريان أن الخلافة لا تنعقد إلا بإجماع الأمة على بكرة أبيها، وعلي لم تجمع عليه الأمة كما أجمعت على الخلفاء الثلاثة قبله، بل جرى هذان مع منطقتهم فاعتبرا معاوية الخليفة أو الإمام الرابع؛ حيث اجتمعت عليه الأمة في نظرهما؛ ولكن يرد عليهما بأن الأمة لم تجمع أيضاً على معاوية، وإذا كان النزاع قد انتهى بعد عام الجماعة؛ إلا أنه لا يمكن القول بأن الأمة جميعها كانت راضية باقتناع عن خلافة معاوية، وإنما المسألة كانت بالأكثر تسليماً بالأمر الواقع، ولم تكن هناك مبايعة عامة بالاختيار.

والخوارج يعترفون أيضاً بصحة خلافة علي، وانعقاد بيعته، وكانوا موالين له وعملوا تحت لوائه، ولكنهم خرجوا عليه بعد التحكيم؛ لأنهم كانوا ييغون استمرار القتال لمحاربة المخالفين.

أما الشيعة، وهم يعتقدون أن هناك نصاً من النبي صلى الله عليه وسلم على الوصاية لعلي بالخلافة . وهو مذهب الإمامية . أو أن النبي عينه بالوصف . وهو مذهب الزيدية . فإنهم طبعاً يؤكدون صحة خلافة علي، ويعلنون أنه الإمام الحق؛ بل يعتقدون أنه صاحب الحق الوحيد في الخلافة منذ وفاة الرسول (عليه الصلاة والسلام)، إذ هم يرون أن الأمة ليس لها اختيار الإمام،

غير أن فريقاً من الشيعة وهم الزيدية يعترفون مع ذلك بإمامتي أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - فيتفقون في ذلك مع الأمة" (١).

وبدأ الصراع ضد عليّ

ولم يكد الإمام عليّ بن أبي طالب يلي أمر الخلافة حتى بدأ الصراع ضده ممن ساءهم مقتل عثمان ونقموا من عليّ التريث في القصاص من قتلته حتى تهدأ الفتنة وتستقر أمور الدولة أو ممن ساءتهم السياسة التي انتهجها عليّ فحالت بينهم وبين أطماعهم وبين ما كانوا يتمتعون به في عهد الخليفة الشهيد عثمان.

كانت السيدة عائشة عائدة من فريضة الحج وسمعت بمقتل عثمان فعادت من الطريق إلى مكة وأعلنت غضبها وسخطها على قتلته، وأخذت تردد: "قتل والله عثمان مظلوماً، لأطلبن بدمه". وفي مكة وافاها طلحة والزبير وبنو أمية وكل من أغضبه مقتل عثمان، فاجتمع بمكة خلق من سادات الصحابة . على نحو ما يذكر ابن كثير . وقامت عائشة تخطب في الناس وتحضهم على القيام بطلب دم عثمان، فاستجاب الناس لها، وطاوعوها على ما تراه من الأمر بالمصلحة وقالوا لها: حيثما سرت سرنا معك، ثم أخذوا يتباحثون في الأمر فهداهم تفكيرهم إلى جمع جيش والمسير به إلى البصرة؛ بوصفها أقرب بلد إليهم من البلاد التي اشترك أهلها في الثورة على عثمان وقتله، وليستعينوا بمن فيها ممن ساءه قتل الخليفة^(١).

أما عن معاوية والي الشام القوي، وأحد من رفضوا مبايعة عليّ بالخلافة، فقد راح يهتهم بدم عثمان، وعلل اتهامه لعليّ بتقصيره في القود من الثائرين، وهم ألوف يحملون السلاح، وهو لم يسكن بعد إلى سلطان يعينه على القود من هؤلاء الألوف المسلحين، فماذا صنع معاوية بقاتلي عثمان حين صار الملك إليه ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذي من أجله ثار واستباح القتال؟

إنه اتبع عليّاً فيما صنع، وأبى أن يذكر الثأر المقيم المقعد، وقد ذكره به وألحوا في تذكيره، ولقد كان أول ما سمعه يوم زار المدينة ودخل بيت عثمان صيحة عائشة بنيتها وهي تبكي: وأبتاه، فلم تزده هذه الصيحة المثيرة إلا إصراراً على الإغضاء والإعفاء.. وقال لها يعزيها: يا ابنة أخي إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حلماً تحت غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كل إنسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا ولا ندري أعلينا تكون أم لنا، ولأن تكويني بنت عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين.

ورجع عليّ عليه السلام إلى خطة أبي بكر وعمر في تجنيب الصحابة الطامحين إلى الإمارة فتنة الولايات؛ مخافة عليهم من غوايتها، وإبعاداً لهم عن دسائس الشيع والعصبيات، فلما طالبه طلحة والزبير بولاية العراق والكوفة قال لهما: بل تبقيان معي لأنس بكما، وسأل ابن عباس: ما ترى؟ فأشار بتولية الزبير البصرة، وتولية طلحة الكوفة، فقال علي: ويحك: إن العراقيين بهما الرجال والأموال... ومتى تملكنا رقاب الناس يستميلوا السفیه بالطمع، ويضرا الضعيف بالبلاء، ويقويا عليّ القوي بالسلطان، ولو كنت مستعملاً أحداً لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام، ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأي.

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٠٢، د/ عبد الشافي عبد اللطيف: تاريخ العالم الإسلامي في عصر النبوة والخلافة الراشدة، ص: ٥٠٩، د/

السيد عبد العزيز سالم، ص: ٣٠٩، ٣١٠.

نعم، إن هذه السياسة أغضبت منافسيه وطالبي المنفعة الدنيوية على يديه، ولكن السياسة الأخرى كانت تغضب أنصاره ولا تضمن له رضى المنافسين ودوامهم على الرضى والوفاق بينهم في تأييده. ولم تمض أيام معدودة على مبايعته ﷺ حتى انتظمت صفوف الحجاز كله له أو عليه، فكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا في عهد عثمان، وجميع الطامعين في الانتفاع بالولاية والأموال العامة، وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه.



لماذا رفض علي إقرار ولاية عثمان

على أعمالهم وأجل إقامة الحد على قتلة عثمان؟

وإنصافاً للحق يجب علينا أن نبين لماذا طلب علي تأجيل الحد من قتلة عثمان، وهذا ما وضعه علي نفسه؛ إذ وضع لطلحة والزبير وأصحاب رسول الله ﷺ حين طالبوه بإقامة الحد على من اشترك في دم عثمان، فبين لهم أن القوم الذين في أيديهم دم عثمان يملكون أهل المدينة وأهل المدينة لا يملكونهم، وقد صارت إليهم العبدان، وفاءت إليهم الأعراب وبأيديهم الحول والطول بالمدينة، وأهلها لا يقدرّون منهم على شيء، وطلب إليهم إنظاره حتى تهدأ الحال، ويتمكن من أخذ المجرمين بذنوبهم.

وقد فسّر ابن تيمية موقف عليّ بن أبي طالب ومعاوية في قضية القصاص بقوله: "لم يكن عليّ . مع تفرّق الناس عليه . متمكناً من قتل قتلة عثمان إلا بفتنة تزيد الأمر شرّاً وبلاءً، ودفع أفسد المفسدين بالتزام أدناها أولى من العكس؛ لأنهم . أي: الثوار الذين احتلوا المدينة النبوية وقتلوا عثمان . كانوا عسكرياً، وكان لهم قبائل تغضب لهم، والمباشر منهم للقتل . أي: الذين نفذوا جريمة القتل . وإن كانوا قليلاً . كان ردّهم . أي: الذين يساندوهم . أهل الشوكة، ولولا ذلك لم يتمكنوا، ولما سار طلحة والزبير إلى البصرة ليقتلوا قتلة عثمان قام بسبب ذلك حرب (وهي: حرب الجمل) قتل فيها خلق، ومما يبين ذلك أن معاوية قد أجمع الناس عليه بعد موت علي، وصار أميراً على جميع المسلمين، ومع هذا فلم يقتل قتلة عثمان الذين كانوا قد بقوا . أي: على قيد الحياة . . . فإن كان قتلهم واجباً . وهو مقدور له . كان فعله بدون قتال المسلمين أولى من أن يقاتل عليّاً وأصحابه لأجل ذلك. ولو قتل معاوية قتلة عثمان لم يقع من الفتنة أكثر مما وقع ليالي صفّين. وإن كان معاوية معذوراً في كونه . بعد أن صار خليفة . لم يقتل قتلة عثمان . إما لعجزه عن ذلك، أو لما يفضي إليه ذلك من الفتنة وتفريق الكلمة، وضعف سلطان، فعلي أولى أن يكون معذوراً أكثر من معاوية؛ إذ كانت الفتنة وتفريق الكلمة وضعف سلطانه بقتل القتلة لو سعى في ذلك أشدّ..."^(١).

دخل عليه المغيرة بن شعبة وكان داهية فقال لعلي: إن عليّ حق الطاعة والنصيحة، وإن الرأي اليوم يحرز به ما في غد، وإن الضياع اليوم تضيع به ما في غد، أقرر معاوية على عمله، وأقرر ابن عامر على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم، حتى إذا أتت طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت، فقال علي: أنظر، وعاد إليه المغيرة من الغد، فقال: إني أشرت عليك بالأمس برأي، وإن الرأي أن تعالجهم بالنزوع فيعرف السامع مع غيره، وتستقبل أمرك، ثم خرج. وتلقاه ابن عباس . وكان قد قدم من الحج بعد مقتل عثمان . فقال لعليّ: رأيت المغيرة خرج من عندك ففيم جاءك؟ قال: جاءني أمس بذية وذية وجاءني اليوم بذية وذية أي بهذه وهذه، فقال: أما أمس فقد نصحك، وأما اليوم فقد غشك. فقال له علي: ولم نصحني؟ قال: لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا، فمتى تثبتهم لا يبالون بمن ولي هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولون:

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية، نقلاً عن: د/ طه عبد المقصود: دراسات في تاريخ الخلافة الأموية، ص: ٣٨، ٣٩. (٤٤)

أخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا، ويؤلبون عليك فينقض عليك أهل الشام وأهل العراق مع أبي لا آمن طلحة والزبير أن يكررا عليك، فقال عليّ: أما ما ذكرت من إقرارهم فوالله ما أشك أن ذلك خير في عاجل الدنيا ولإصلاحها، وأما الذي يلزمني من الحق والمعرفة بعمال عثمان فوالله لا أولي أحداً منهم أبداً، فإن أقبلوا فذلك خير لهم، وإن أدبروا بذلت لهم السيف.

فقال ابن عباس: فأطعني وادخل دارك، أو الحق بمالك بينبع فإن العرب تجول وتضطرب عليك، فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غداً، فأبى عليّ وقال لابن عباس: سر إلى الشام فقد وليتكها، فقال ابن عباس: ما هذا برأي معاوية، رجل بني أمية وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام، ولست آمن أن يضرب عنقي بعثمان، وإن أدني ما هو صانع أن يجبسنني ويتحكم عليّ، فقال عليّ: ولم؟ قال: لقاربة ما بيني وبينك، وإن كل ما حُمل عليك حُمل عليّ، ولكن اكتب إلى معاوية فمَنِّه وعِدّه، فأبى عليّ.

كيف صارت الأحداث بعد تولية عليّ الخلافة؟

أخذت الأحداث تترى بعد تولي علي واضطربت الأوضاع وتفاقت الأمور بعد أن أطلت الفتنة برأسها.. ومن المفيد أن نسرد هذه الأحداث في نقاط موجزة.

١. العمال الجدد:

وزع على عماله الجدد الذين توخى فيهم الصلاح والدين على الأمصار فمنهم من منع من الدخول ومنهم من هدد بالقتل.. وتفرق الناس إلى شيع وأحزاب بين مؤيدين ومعارضين لعليّ وخاصة أهل الكوفة والبصرة فهم على افتراق شديد منه.. وكان من الطبيعي أن يكون وراء هذه الأحداث المنتفعون والغوغاء ومثيرو الفتن الذين ينمون في هذه الأجواء المضطربة يستفيدون من هذه الأوضاع... وبلغ التمرد حده حينما أرسل عليّ إلى معاوية يطلب إليه أن يبايعه... فأبى معاوية إلا بعد أن يقتص عليّ من قتلة عثمان.

٢. إعلان القتال على أهل الفرقة:

رأى عليّ أن الفرقة قد استفحلت ولا بد من قمعها، فدعا ابنه محمد بن الحنفية فدفع إليه اللواء، وولى عبد الله بن العباس ميمنته وعمر بن سفيان ميسرته، وأبا ليلى عمر بن الجراح مقدمته، واستخلف على المدينة قثم بن العباس... ثم قام وخطب في أهل المدينة فدعاهم إلى النهوض في قتال أهل الفرقة، وبينما هم كذلك إذ جاء الخبر عن أهل مكة أن القائم على رأس هذه الفرقة: طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين، فقام في الناس وأعلمهم بذلك... وأنذرهم بقتالهم إن لم يكفوا عنه... فاشتد الأمر على أهل المدينة واثقلوا.. وشاع بينهم التمرد حتى أن عبد الله بن عمر رفض نصرته عليّ حينما أراد أن ينهض معه ليكون للناس أسوة، كان جوابه: أنا رجل من أهل المدينة فإن يخرجوا أخرج، وإن يقعدوا أقعد، ولسان حال أهل المدينة يقول: لا... والله ما ندري كيف نصنع فإن الأمر لمشتبه علينا ونحن مقيمون حتى يضيء لنا ويسفر. ولم يقم مع علي من أهل بدر سوى ستة نفر... وبينما يجد عليّ هذا التخاذل حوله والتناقل من أصحابه والتردد من أتباعه، نجد معاوية وقد التف حوله أهل الشام يناصرونه ويعضدون موقفه، فكان هناك الحزم والترابط، بينما هنا التفكيك والتنافر.

أما في مكة فقد اجتمع طلحة والزبير وعائشة وعبد الله بن عامر ويعلى بن أمية وغيرهم، واتفقوا على أن ينطلقوا إلى البصرة، ونادى مناديتهم: إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة فمن كان يريد إعزاز الإسلام وقتال المحلين والثأر لعثمان.. فليدخل معنا... فتبعهم ألف من المجهزين بالمال والسلاح... وأرادت حفصة الخروج فمنعها عبد الله بن عمر.. وسار معهم مروان وسائر بني أمية...

٣. انقسام أهل البصرة على أنفسهم:

انطلقت عائشة وأشياعها المطالبون بدم عثمان إلى البصرة... فلما دنوا منها خرج إليهم عثمان ابن حنيف والي عليّ على البصرة وأرسل إليهم يسأل: ماذا يريدون؟... فأجابت عائشة بأن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع أهل القبائل غزوا حرم رسول الله، وأحدثوا فيه الأحداث وبذلك استوجبوا لعنة الله ورسوله مع ما نالوا من قتال إمام المسلمين بلا عذر، ولما سأل طلحة والزبير عن سبب قدومهما... قالوا: المطالبة بدم عثمان... وهنا عزم عثمان بن حنيف على منع القوم من دخول البصرة وخطب الناس خطبة طويلة بيّن لهم فيها موقف طلحة والزبير وهما اللذان قد بايعا عليّاً.. وانتقد بعض الناس موقف السيدة عائشة، وقال لها أحدهم وهو حارية بن قدامة السعدي: يا أم المؤمنين، والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح!!.. إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك، إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك... إن كنت خرجت طائعة فارجعي إلى منزلك.. وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعيني بالناس..

وخرج شاب من بني سعد إلى طلحة والزبير فقال: أما أنت يا زبير فحواري رسول الله ﷺ، وأما أنت يا طلحة فوفيت رسول الله ﷺ بيدك، وأرى أمكما معكما... فهل جئتما بنسائكما؟ قال: لا، قال: فما أنا منكما في شيء... وانقسم الناس من أهل البصرة إلى فريقين: فريق يناصر عليّاً... وآخر يناصر حزب عائشة.. واستتب الأمر بالبصرة بعد قتال بين عثمان ومن معه، وبين طلحة والزبير وأنصارهما..

ولما بلغ عليّاً أخبار طلحة والزبير وعائشة في البصرة عدل عن المسير إلى الشام وبعث إلى أهل الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن عوف ليستميلهم إليه، ثم سار والناس من القبائل يتلاحون به حتى نزل على ذي قار وقد وافاه عثمان بن حنيف وبلغه ما كان من شأن قتلة عثمان.

وقد فشل رسوله إلى الكوفة في مهمتهما نتيجة لتقاعد والي الكوفة أبي موسى الأشعري، والذي قال لهما: لا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان... وعاد فأرسل ابن عباس والأشتر ليجمعا الناس على أمره ولكنهما عادا كسابقتهما، فأرسل ابنه الحسن وعمار بن ياسر، وهناك خطب الحسن الناس فوضح لهم مقاصدهم ودعاهم إلى إجابة أميرهم، وقال لهم: إني غاد فمن شاء منكم فليخرج على الظهر (البر)، ومن شاء فليخرج في الماء... فخرج معه تسعة آلاف حتى وصلوا إلى ذي قار وعليّ بها. فقال لهم عليّ: قد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة فإن يرجعوا فذاك ما نريد، وإن يلجوا داويناهم بالرفق وباينهم حتى يبدأوا بظلم، ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا أثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله.

٤. وكاد الصلح أن يحدث:

ولما حضر أهل الكوفة دعا عليّ القعقاع من ساداتهم وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، وقال له: ألق هذين الرجلين (يعني طلحة والزبير) يا ابن الحنظلة فادعهما إلى الألفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة... وقدم القعقاع البصرة فبدأ بعائشة وثني بطلحة والزبير، وأخذ يبين لهم خطأ موقفهم، وناشدهم أن يكونوا مفاتيح خير، وألا يعرضوا البلاد للبلاء،

وما زال يحدثهم حتى قام له القوم إعجاباً وإجلالاً، وقالوا له: أحسنت وأصبت، فإن جاء عليّ بمثل ما قلت صلح الأمر....

ويبدو أن هذا القول قد وقع من نفس عائشة وطلحة والزبير أحسن وقع، وأنه حملهم على إثثار العافية وما فيه الاجتماع، ونبد الفرقة، ورتق ما فتقاه وما أجمل ذلك لو تم. ورجع القعقاع إلى عليّ وأخبره بما كان منه مع القوم ومنهم، فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح، ثم أمر عليّ بالرحيل.

٥. كيف اشتعلت الفتنة من جديد؟!...

الصيد في الماء العكر وركوب الموجة هو طابع المتسلقين وديدن البطانات الفاسدة والشلل المتعفنة، الذين لا يستتب لهم أمر مع الاستقرار وسكون الأوضاع... وهذه الشراذم ترى أن الصلح وجمع الشمل خطر عليهم، وتهدد لنفوذهم، وتقليل لدورهم المشبوه.

ولما كان أمر الصلح لا يضر أحداً من الأمة سوى المتاجرين بقميص عثمان؛ لأن حياتهم لا تكون إلا بدوام الشقاق بين علي وخصومه، ولهذا أشفقوا على أنفسهم أن يكون هذا الصلح على أعناقهم، فاجتمع رهط منهم وعلى رأسهم ابن السوداء وخالد بن ملجم، فتشاوروا فيما يصنعون، وألهمهم شيطانهم بخطة خبيثة... قالوا: إذا اجتمع الناس غدا واصطلحوا فليس الصلح إلا علينا، وأشار بعضهم بقتل علي وطلحة حتى تكون هذه بتلك فيغفر الناس لهم ما أحدثوا بعثمان؛ ولكن هذا الرأي لم يحظ بموافقتهم، فقال آخر: إن عزمكم في خلطة الناس فصانعوهم، وإذا التقى الناس غداً فأنشبو القتال، ولا تفرغوه للنظر، فإذا من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع، ويشغل الله علياً وطلحة والزبير عما يكرهون.

ولما وصل عليّ بعد ذلك إلى البصرة وقد بيتت هذه الطائفة المارقة المسماة بالسبئية (نسبة إلى عبد الله بن سبأ) من أنفسهم أمراً، وهو لا يعلم من أمرهم شيئاً، أرسل إلى القوم: "إن كنتم على ما فارقتم القعقاع عليه فكفوا وأقرونا ننزل وننظر في هذا الأمر، فنزلوا والقوم لا يشكون في الصلح، ومشت السفراء بين الفريقين، وبات الناس يداعبهم أمل السلامة والعافية، راجين من الله أن يقي الأمة الإسلامية شر هذه الفتنة.

ولكن السبئية كانوا قد صمموا على أمر فقاموا في جوف الليل، ووضعوا السلاح في أهل البصرة، فلما سأل طلحة والزبير عن ذلك متعجبين، أجاب السبئية: لقد طرقتنا أهل الكوفة ليلاً، فقالوا: قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمه، وأنه لن يطاوعنا.

وعلم عليّ بمقولة الزبير وطلحة، فقال: قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمه، وإنهما لن يطاوعانا، ولم يجد الفريقان بداً من القتال.

٦. موقعة الجمل (١٠ جمادى الآخرة سنة ٣٦هـ):

وكانت عائشة في هودجها وقد جللته بالحديد وهي بمكة وجعلت فيه موضعاً لعينها وهي في عسكر أهل البصرة، ونفذ القضاء ووقع المحذور والتقى الجمعان... في موقعة شرسة، كل فريق يحمل على الآخر، وأهل البصرة وشجعانهم وذوو النجدة منهم يلوذون بجمل عائشة يدافعون عنها حتى لا تصاب بشر، فقتل حوله خلق كثير... ولما رأى عليّ كثرة القتلى حول الجمل، وأن الناس يستमितون دونه ولا يسلمونه أبداً... نادى: اعقروا الجمل: فجاء إلى الجمل رجل من خلفه فعقره وسقط الهودج... فجاء مُجَدُّ بن أبي بكر وعمار بن ياسر واحتملا الهودج فنحياه عن القتلى وخرج بها مُجَدُّ حتى أدنى البصرة.

ولما ظهر الضعف في الناس تركهم الزبير وولى وجهه شطر المدينة، فاتبعه عمرو بن جرموز حتى إذا كان بوادي السباع قتله.

وسقط في هذه الموقعة المشئومة عشرة آلاف مقاتل فيهم كثير من أعلام المسلمين وذوي المروءة والنجدة منهم الزبير وطلحة ومُجَدُّ بن طلحة وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، وكثير غيرهم من قريش؛ حتى قالوا: قتل حول الجمل سبعون قرشياً.

ولما انتهت الموقعة صلى عليّ على القتلى من الفريقين وأمر بدفنهم جميعاً... ثم زار السيدة عائشة - رضي الله عنها - بالبيت الذي نزلت فيه وقعد عندها فصاحت به صفية بنت طلحة الطلحات: أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادي... فلم يرد عليها شيئاً... ثم خرج فأعادت عليه القول... فلم يرد عليها.. فقال رجل أغضبه مقالها: يا أمير المؤمنين أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟ فانتهره وهو يقول: ويحك.. إنا أمرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟!!

وأمر بالسيدة عائشة فجهزت إلى المدينة خير جهاز... وإنه لفي طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة... ثم جاء يوم رحيلها فودعها بنفسه أكرم وداع، فقالت معترفة له بحسن صنيعه: "إنه والله ما كان بيني وبين عليّ في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي لمن الأخيار".

وقال عليّ: "أيها الناس... صدقت والله وبرت، وإنه ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة".

وكان عليّ قد أرسل معها من يخدمها ويحف بها... وقيل: إنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم وقلدهن بالسيوف، فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت وقالت: هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي... فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها: إنما نحن نسوة!!

فكانت هذه المروءة سنته مع خصومه من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها، ومن كان في حرمة عائشة - رضي الله عنها - ومن لم تكن له حرمة قط... وهي أندر مروءة عرفت من مقاتل في عز القتال..

بقيت الإشارة إلى أن ما أقبلت عليه السيدة عائشة ومن كان معها من الصحابة - رضي الله عنهم - اجتهد خاطئ منهم؛ "لأنهم -

بتصرفهم هذا . كما لو أنهم قد أقاموا حكومة أخرى غير حكومة الإمام، المبايع شرعاً من الأمة، وهو الذي يُنَاط به وحده إقامة الحدود والقصاص من القتل، وكان أفضل من هذا وأسلم لهم وللأمة كلها أن يتوجهوا إلى الإمام الشرعي بالمدينة، ويشدوا من أزره في هذا الوقت العصيب الذي تمر به الأمة، ويتشاوروا معه في أفضل طريقة لحل كل المشاكل التي تواجهها الأمة الإسلامية بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه، ومنها . بطبيعة الحال . إقامة الحد على القتل الأشقياء ^(١) . والذي تطمئن إليه النفس كما يذكر الدكتور/ عبد الشافي عبد اللطيف في كتابه "تاريخ الإسلام في عصر النبوة والخلافة الراشدة":

"أنه لا عائشة ولا طلحة ولا الزبير ولا عليّ . رضي الله عنهم جميعاً . كانوا يريدون القتال وسفك الدماء، ولم يكونوا يتصورون أن ذلك سيحدث، وكل ما دفع عائشة ومن معها إلى الخروج هو اقتناعهم بأن عثمان قتل مظلوماً، وعليهم تقع مسئولية إقامة الحد على قتلته، ولم يكونوا أبدأً مُعادين لعلي أو معترضين على خلافته، وقد عرفنا ميلهم جميعاً إلى الصلح لولا أن "السبئية" أفسدوا كل شيء، وأوقعوا الحرب، فعليهم . أي "السبئية" . تقوم التبعة وتقع المسئولية؛ لأنهم هم الذين أشعلوا الفتنة من البداية، وقتلوا خليفة المسلمين ظلماً، أما الصحابة الكرام الذين اشتركوا في هذه الحرب فأصدق تعبير عن موقفهم ما قاله ابن خلدون: "وإذا نظرت بعين الإنصاف عذرت القوم أجمعين وعلمت أنها فتنة ابتلى الله بها الأمة" ^(٢) . ولقد ندمت عائشة . رضي الله عنها . ندماً شديداً على ما حدث، وقالت: "والله لوددتُ أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة"، وندم عليّ هو الآخر على ما حدث، وقال العبارة نفسها التي قالتها عائشة، "فكان قولهما واحداً"، كما يقول الطبري في تاريخه.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن عائشة لم تقاتل ولم تخرج لقتال، وإنما خرجت لقصد الإصلاح بين المسلمين، ثم تبين لها فيما بعد أن ترك الخروج كان أولى، فكانت إذا ذكرت خروجها تبكي حتى تبل خمارها، وهكذا عامة المسلمين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال، فندم طلحة والزبير وعليّ . رضي الله عنهم أجمعين . ولم يكن لهؤلاء يوم (الجملة) قصد في الاقتتال؛ ولكن وقع الاقتتال بغير اختيارهم، فإنه لما ترأس علي وطلحة والزبير وقصدوا الاتفاق على المصلحة، وأنهم إذا تمكّنوا طلبوا قتل عثمان . أهل الفتنة . فخشى القتل فحملوا على عسكر طلحة والزبير، فظن طلحة والزبير أن علياً حمل عليهم، فحملوا هم دفعاً عن أنفسهم، فظن عليّ أنهم حملوا عليه، فحمل هو دفعاً عن نفسه، فوقع الفتنة بغير اختيارهم، وعائشة . رضي الله عنها . راكبة، لا قاتلت ولا أمرت بالقتال"، وقد روى عن علي أنه قال: "إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير وعثمان ممن قال الله تعالى فيهم { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ } ^(٣) .

٧ . تمرد معاوية بالشام وموقعة صفين:

(١) د/ عبد الشافي عبد اللطيف: تاريخ العالم الإسلامي في عصر النبوة والخلافة الراشدة، ص: ٥٠٩ .

(٢) د/ عبد الشافي عبد اللطيف: المرجع السابق، ص: ٥١٢، ٥١٣ .

(٣) البداية والنهاية ٤/٣٢٤، سورة الحجر: ٤٧ .

انصرف عليّ من البصرة إلى الكوفة.. وقد أخذ البيعة من كل من جرير بن عبد الله البجلي، وكان عاملاً على همدان والأشعث بن قيس الكندي وكان عاملاً على أذريجان... وأرسل إلى معاوية حتى يوافيه بالبيعة... وكتب إليه كتاباً يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ونكث طلحة والزبير... ومن كان من حربه إياهما... ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من الطاعة...

ولكن داهية الشام وثعلب السياسة والحيلة.... رد أغلظ رد وهذا ما تجلّى في كتابه الذي أرسله إلى عليّ يقول فيه: "سلام عليك.. أما بعد فلعمري.. لو بايعك الذين ذكرت وأنت بريء من دم عثمان لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان... ولكنك أغريت بدم عثمان.... وخذلت الأنصار... وقد أبى أهل الشام إلا قتالك... حتى تدفع إليهم قتلة عثمان... فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين!.. وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم... فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام... ولعمري... ما حجتك على أهل الشام كحجتك على طلحة والزبير... إن كانا بايعاك... فلن أباعك أنا... فأما فضلك في الإسلام وقرابتك من رسول الله ﷺ فلست أدفعه..."

ولم يكن بد من المواجهة بين الفريقين... ففي ذي الحجة سنة (٣٦هـ) كانت الفرقة من جيش العراق تخرج لتقابل مثلثتها من جيش الشام فيقتتلون.. ولا يزال الفريقان على هذا الحال حتى أهل المحرم فتودع الفريقان إلى انقضائه طمعاً في الصلح.. واختلف بينهما الرسل في ذلك...

٨. ووقعت الواقعة:

انسلخ شهر المحرم ولم تسفر الوساطة عن نجاح أو تقدم، وبدت في الأفق نذر الحرب... وأخذ معاوية وعمرو بن العاص ينظمان الجيوش... وفعل علي مثلهما... وقال لجنوده يلقنهم آداب الحرب وروح الفروسية في الإسلام: لا تقتالوهم حتى يقاتلوكم... فأنتم على حجة وتركهم حتى يقاتلوكم حجة أخرى.. فإذا هزمتوهم فلا تقتلوا مدبراً... ولا تجهزوا على جريح... ولا تكشفوا عورة.. ولا تمثلوا بقتيل... وإذا وصلتكم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترًا... ولا تدخلوا داراً.. ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم... ولا تهينوا امرأة... وإن شتمن أعراضكم وصلحاءكم... فإنهن ضعاف القوى والأنفس...

وفي الأربعاء الثامن من صفر سنة (٣٧هـ)... زحف عليّ بجنود أهل العراق... وزحف له معاوية بجنود أهل الشام في يوم مشئوم... أسدل الليل سواده عليهم ولما تكتب الغلبة لأحد من الفريقين... ثم أعادوا الكرة في الغد في حملة شديدة استمر القتال طوال النهار والليل، وهي الليلة المسماة بليلة (الهرير)، وفي غمار المعركة وحين بدت معالم النصر تلوح لجنود عليّ... لجأ أهل الشام إلى الحيلة فرفعوا المصاحف على أسنة الرماح... وقال قائلهم: هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم... من لثغور الشام بعد أهل الشام... ومن لثغور العراق بعد أهل العراق؟... فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة... قالوا: نجيب إلى الله... ولكن علياً رأى أن هذه خدعة من قبل معاوية وعمرو وأصحابهما... ورأى استمرار القتال... ولكنه أمام إصرار أصحابه نزل على رغبتهم حينما هددوه ورأى أن الفتنة على وشك الوقوع بين صفوفه... فأمر بوقف القتال... وأرسل إلى معاوية الأشعث بن قيس فسأله: لأي شيء رفعتم هذه المصاحف؟... فقال معاوية:

لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عز وجل في كتابه... تبعثون منكم رجلاً ترضون به... ونبعث منا رجلاً... ثم نأخذ عليهما أن يعملوا بما في كتاب الله... لا يعدوانه... ثم نتبع ما اتفقا عليه....

وكما أكره الإمام عليّ (عليه السلام) على التحكيم، أكره كذلك على اختيار من يمثله، فقد كان يريد أن ينيب عنه ابن عمه عبد الله بن عباس؛ ولكن أنصاره ولاسيما من أبناء اليمن بزعامة الأشعث بن قيس رفضوا ذلك وأجبروه على اختيار أبي موسى الأشعري ممثلاً له ونائباً عنه، في حين أناب معاوية وأهل الشام عمرو بن العاص (١).

وقد أسيء تصوير حادث التحكيم وأسيء تفسيره؛ فكانت القصة أو الرواية الشائعة بين الناس أن ثمة خداعاً ومكرًا وقعاً في التحكيم؛ حيث تذكر هذه الرواية أن عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري بعد أن اجتمعا وتداولوا في أمر الخلافة بين علي ومعاوية "اتفقا على خلع علي ومعاوية جميعاً... وعندما قررا إعلان اتفاقهما أراد أبو موسى أن يقدم عمرو بن العاص ليكلم الناس أولاً، ولكن عمرًا قال له: إن الله قد قدمك قبلي في الإيمان والهجرة، وأنت وافد أهل اليمن إلى رسول الله، ووافد رسول الله إليهم... قم أنت فقام، فقال أبو موسى فقال (بعد أن حمد الله وأثنى عليه): إني رأيت وعمرو أن نخلع عليًا ومعاوية، ونجعلها (أي الخلافة) لعبد الله بن عمر بن الخطاب، فإنه لم ييسط في هذه الحرب يدًا ولا لسانًا، وعندئذ قام عمرو بن العاص فقال: يا أيها الناس هذا أبو موسى شيخ المسلمين، وحكيم أهل العراق، ومن لا يبيع الدين بالدنيا، وقد خلع عليًا، وأنا أثبت معاوية، وهنا قال أبو موسى: مالك؟ عليك لعنة الله! إن أنت إلا كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث! فقال له عمرو: ولكنك كمثل الحمار يحمل أسفارًا! فاختلط الناس، وتشاتم عمرو وأبو موسى (٢)... وثمة روايات أخرى شائعة لهذه القصة لا تخرج في مضمونها عن هذه الرواية.

وقد ناقش الدكتور / محمد سليم العوا هذه الرواية مناقشة موضوعية، في كتابه "في النظام السياسي للدولة الإسلامية"، وانتهى إلى تكذيبها، والحكم بأنها موضوعية، بناءً على ثلاثة أمور؛ هي:

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/٣٦١، المسعودي: مروج الذهب ٢/٤٠٢.

(٢) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ١/١٣٦ - ١٣٨.

أولاً: موضوع الخلاف بين عليٍّ ومعاوية:

من المعروف والمتفق عليه بين جميع المؤرخين أن الخلاف بين عليٍّ ومعاوية . كالخلاف بين عليٍّ ومن حاربه يوم الجمل . كان سببه مقتل عثمان رضي الله عنه، ذلك أنه بعد قتل عثمان ومبايعة عليٍّ رأى جماعة من الصحابة منهم طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهن . أن عليّاً قد قصر في المطالبة بدم عثمان، أي في توقيع عقوبة القصاص على قاتليه، وذلك الظن هو الذي جعل معاوية يمتنع عن بيعته عليٍّ وعن إنفاذ أوامره في الشام ذاهباً إلى أنه من الأولى أن ينصرف المسلمون إلى تطبيق عقوبة القصاص على الذين قتلوا رئيس الدولة، ثالث الخلفاء الراشدين، ثم يبحثوا بعد ذلك موضوع الإمامة أو الخلافة، وكان رأي عليٍّ رضي الله عنه أن بيعته قد انعقدت برضاء من حضرها من المسلمين في المدينة ولزمت بذلك بقية المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية.

وإذا كان موقف معاوية واضحاً في رفضه البيعة، فإن عليّاً رأى أن معاوية . ومن معه من أهل الشام . بغاة خارجون عليه . وهو رئيس الدولة منذ بويع بالخلافة . وقرر أن يخضعهم ليلتزموا بجماعة المسلمين، وهكذا كانت الحرب بين عليٍّ ومعاوية حرباً أثارها اعتبار عليٍّ معاوية باغياً خارجاً عليه، وظن معاوية أن عليّاً قد قصر فيما يجب عليه من القصاص لعثمان بقتل قتلته، وامتناعه من ثم عن طاعته . وبعبارة أخرى: فإن معاوية رأى أن القصاص قبل البيعة لعليٍّ، وهو ولي الدم . لقربته من عثمان . فقرر أن يطبق على القتلة حكم القصاص وقد كانوا . أو كان معظمهم . بين الحجاز والعراق تحت حكم عليٍّ، ورأى عليٍّ في ذلك افتتاتاً على سلطانه، وخروجاً على اتفاق أهل المدينة على بيعته.

ثانياً: المركز القانوني لمعاوية ^(١):

كان معاوية قد تولى حكم الشام نائباً عن عمر بن الخطاب، وبقي في ولايته إلى أن مات عمر، وتولى عثمان بن عفان أمر الخلافة فأقره في منصبه، ثم قتل عثمان وتولى عليٍّ بن أبي طالب الخلافة ببيعة من كان من المسلمين حاضراً في المدينة، وليس من شك في أن عليّاً رضي الله عنه لم يقر معاوية في عمله بعد انتهاء ولايته بقتل عثمان رضي الله عنه، وبذلك فقد معاوية مركزه القانوني، وإن لم يفقد مركزه الفعلي أو الواقعي كحاكم غير مولى للشام.

فإذا كان ذلك صحيحاً . وهو عندي صحيح لا ريب فيه . فإن قرار الحكّمين إذ تضمن فيما تزعم الرواية الشائعة عزل كل من عليٍّ ومعاوية، قد ورد في حق معاوية على غير محل له: إن اتباع أهل الشام لمعاوية لم يكن بسبب ولايته عليهم، فهذه الولاية قد انقضت . قانوناً . بمقتل الخليفة الذي ولاه أو أقره على ولايته، وإنما كان اتباعهم إياه على أساس من اقتناعهم بالسبب الذي جعله يرفض بيعته عليٍّ، وهو المطالبة باقتضاء حقه في القصاص من قتلة عثمان باعتباره ولياً للدم، فهل كان الحكّمان يملكان عزله عن قربته؟ أو منعه من المطالبة بحقه فيها؟

فهذا سبب آخر يؤيد بطلان القصة الشائعة عن مسألة التحكيم والقرار الصادر فيها، وقد رأينا من قبل أن الخلاف بين معاوية وعليٍّ لم يشتمل على خلاف في أمر الخلافة، ورأينا هنا أنه لم يكن ثمة محل لعزل معاوية من مركز فعليٍّ بواه إياه اقتناع الناس برأيه.

(١) المكان السابق.

ثالثاً: أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص^(١):

إن القول بأن أبا موسى الأشعري كان في قضية التحكيم ضحية خديعة عمرو بن العاص ينافي الحقائق التاريخية الثابتة عن فضله وفطنته وفقهه، ودينه، وهي الحقائق التي ثبتت له بتوليته بعض أعمال الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ. فقد استعمل رسول الله ﷺ أبا موسى الأشعري على زبيد وعدن، وكذلك استعمله عمر بن الخطاب على البصرة، وقد بقي والياً عليها إلى أن قتل عمر بن الخطاب، وكذلك استعمله عثمان بن عفان على البصرة ثم على الكوفة وبقي والياً عليها إلى أن قتل عثمان رضي الله عنه، فهل يتصور أن يثق رسول الله ﷺ ثم خلفاؤه من بعده في رجل يمكن أن تجوز عليه الخدعة التي يرويها الناس عن قضية التحكيم.

وقبول الرواية الشائعة عن التحكيم يعني أن عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري لم يفهما موضع النزاع ولم يحيطا بموضوع الدعوى؛ ولذلك حكما فيها الحكم الذي ترويها القصة الشائعة عن التحكيم، وإذا كان ذلك غير مقبول - لأنه في نظرنا غير معقول - فإننا نقرر باطمئنان أن هذه القصة لا يمكن أن تكون مطابقة لحقيقة الواقعة التاريخية لحادثة التحكيم. وقبول تلك الرواية الشائعة أيضاً يعني الحكم على عمرو بن العاص رضي الله عنه بأنه كان في أداء مهمته رجلاً تسيره الأهواء فتطغى، لا على فطنته وخبرته فحسب؛ بل على ورعه وتقواه أيضاً^(٢).

ويقول القاضي أبو بكر بن العربي في نقد هذه الرواية الشائعة عن التحكيم: "وقد تحكم الناس في التحكيم فقالوا فيه ما لا يرضاه الله، وإذا لحظتموه بعين المروءة دون الديانة رأيتم أنها سخافة حمل على سطرها في الكتب في الأكثر عدم الدين، وفي الأقل: جهل متين"^(٣).

والذي نطمئن إليه بشأن حقيقة قرار الحكيم أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص أنهما اتفقا على أن يأخذ الناس مهلة مدتها ستة شهور حتى تهدأ النفوس، وتدمل الجروح، ويجتمع الحكمان للتباحث والوصول إلى حل، فلما اجتمعا انتهيا - بعد مفاوضات طويلة - إلى نتيجة رأياها أفضل الحلول، وهي عزل علي رضي الله عنه عن الخلافة، ورد الأمر إلى الموجودين على قيد الحياة من أعيان الصحابة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ. أما التصرف العملي في إدارة البلاد التي كانت تحت يد كل من الرجلين المتحاربين فبقى كما كان، علي متصرف في البلاد التي تحت حكمه (وهي كل الدولة الإسلامية عدا الشام) ومعاوية متصرف في البلاد التي تحت حكمه (وهي الشام).

ويرى البعض أن الذي وقع في التحكيم هو أن الحكيم اتفقا على أن يبقى علي في الكوفة، وهو خليفة المسلمين، وأن يبقى معاوية في الشام أميراً عليها، واستدل أصحاب هذا الرأي بما رواه البخاري في (التاريخ الكبير) بسند صحيح أن عمرو بن العاص لما جاء موعد التحكيم التقى مع أبي موسى الأشعري، فقال: ما ترى في هذا الأمر؟ قال أبو موسى: أرى أنه (أي علياً) من نفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم، فقال عمرو: فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ قال أبو

(١) د/ محمد سليم العوا: المكان السابق.

(٢) د/ محمد سليم العوا: في النظام السياسي للدولة الإسلامية، ص: ٩٢-٩٧.

(٣) العواصم من القواصم، ص: ٣٠٨.

موسى: إن يُسْتَعْنُ بكما ففيكما المعونة، وإن يُسْتَعْنُ عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما"، ثم انتهى الأمر على هذا (١).

الخوارج

كان من الطبيعي أن تكون هناك فئة تقف موقفاً معارضاً للتحكيم... بل هي تنكره أساساً.. بل غالت هذه الفرقة في رأيها وذهبت إلى تكفير الحكمين فخرجوا عن إجماع الأمة، وشقوا عصا الطاعة على عليّ فاستحقوا أن يطلق عليهم لفظ "الخوارج"...

فقد اجتمعوا فيما بينهم وأبرموا أمراً... وقالوا: إن هذين الحكمين قد حكما بغير ما أنزل الله... وقد كفر إخواننا حين رضوا بالتحكيم... وحكموا الرجال في دينهم... وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق... وقد زاد من صعوبة الأمر المهزلة التي انتهى التحكيم بها مما أضعف موقف علي... وأغرى هذه الفئة بالمروق والتمرد... وقد أبى على قتالهم حتى يئأس من توبتهم... وآثر أن يقنعهم عن طريق الحوار والإقناع، حتى يرجعهم إلى حظيرة الجماعة.. ولتحقيق ذلك اقترح عليهم أن يخرجوا إليه رجلاً منهم يرضونه ليسأله ويحييه... ويتوب إن لزمته الحجة... ويتوبوا إن لزمتهم... فأخرجوا إليه إمامهم عبد الله بن الكواء...

قال عليّ: ما الذي نقمتم عليّ بعد رضاكم بولايتي وجهادكم معي وطاعتكم لي، فهلا برأتكم مني يوم الجمل... قال ابن الكواء: لم يكن هناك تحكيم..

قال عليّ: ويحك... أنا أهدى أم رسول الله ﷺ؟... قال ابن الكواء: بل رسول الله ﷺ.

قال عليّ: قد سمعت قول الله عز وجل: {قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ}... أكان الله يشك أنهم هم الكاذبون؟..

قال ابن الكواء: إن ذلك احتجاج عليهم وأنت شككت في نفسك حين رضيت بالحكمين... فنحن أخرى أن نشك فيكم!!..

قال عليّ: وإن الله تعالى يقول: { فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ }^(١).

قال ابن الكواء: ذلك أيضاً احتجاج منه عليهم...

ثم قال بعد كلام طويل من قبيل كلامه هذا: إنك صادق في جميع قولك غير أنك كفرت حين حكمت الحكمين!!

قال عليّ: ويحك يا ابن الكواء... إني إنما حكمت أبا موسى وحكم معاوية عمرو...

قال ابن الكواء: فإن أبا موسى كان كافراً!!...

قال عليّ: متى كفر؟... أحين بعثته أم حين حكم؟...

قال ابن الكواء: بل حين حكم...

(١) القصص: ٤٩.

قال علي: أفلا ترى أني إنما بعثته مسلماً فكفر في قولك بعد أن بعثته؟... أرأيت لو أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً من المسلمين إلى ناس من الكافرين ليدعوهم إلى الله . وقد حدث هذا في عهد النبي ﷺ إذ أوفد نهاراً الرجال ليهدي قوم مسيلمة فانقلب هناك مبشراً بدينه . فدعاهم إلى غيره، هل كان علي رسول الله ﷺ من ذلك شيء.

قال: لا...

قال: ويحك... فما كان عليّ أن ضل أبو موسى؟... أفيحل لكم بضلالة أبي موسى أن تضموا سيوفكم على عواتقكم فتعترضوا بها الناس؟

فعلم الخوارج أن صاحبهم ليس بند لعليّ في مجال النقاش، فكفوه عن الكلام كأنهم آمنوا بصدق علي في حجته وقصده... لولا أنهم قوم قهرتهم لاجاة العناد كما تقهر أمثالهم من المتهوسين الذين يجدون في المضي مع العناد لذة لا يستمرئونها من الحق والمعرفة... فأصروا على تكفير علي وأصحابه وأن يعاملوهم في الحرب والسلم معاملة الكفار.... ولم يترك علي باباً للسلم إلا طرده... ولكي يعطيهم فرصة أخيرة للرجوع عن غيهم رفع في الساحة راية ضم إليها ألفي رجل ونادى: من التجأ إلى هذه الراية فهو آمن... ثم قال لأصحابه: لا تبدؤوهم بالقتال حتى يبدؤوكم... فصاح الخوارج: لا حكم إلا لله... وإن كره المشركون... وهجموا هجمة رجل واحد فتلقاهم علي وأصحابه بعد نفاذ صبر ويأس من إياهم.. وتكلمت السيوف والرماح... وإن هي إلا ساعة حتى استطاع شيعة علي أن يقضوا على معظم الخوارج... ولم يبق منهم سوى أربعمائة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتال... فأمر بهم علي فحملوا إلى عشائهم لينظروا من فيه رمق فيدركوه بعلاج!!..

١١. وانقسم الأتباع:

مسكين الإمام عليّ!! ومظلوم بين أتباعه.. لا يكاد يخرج من فتنة وينجح في القضاء عليها ويستعد لبناء الدولة الجديدة حتى تلوح له فتنة أشد ومحنة أنكى... فهو لم يكد يقضي على فتنة الجمل حتى ظهرت له صفين... التي تلاها التحكيم الهزيل الذي لم يفق منه حتى استيقظ على ضجيج الخوارج... ولم تكن الخوارج آخر الآلام... أو نهاية المطاف... ولم يبق بعد ذلك إلا أن ينقسم أصحابه عليه... لتتم المأساة... ورحمك الله يا علي فقد ساقتك الأقدار إلى أناس لا يجتمعون على رجل واحد... ولا يجزمون أمرهم على راية... وإنها لبطولة ورباطة جأش... ومسئولية كبرى ينوء بحملها أفذاذ الرجال...

لقد أراد الإمام عليّ كرم الله وجهه ورضى عنه أن يسير إلى الشام بعد قتال الخوارج ليلقى بها جيش معاوية ويقضي على مشعلي الفتنة... ويلم الشمل... فإذا بالأشعث بن قيس يتصدى له كما تصدى له في كل فرصة سانحة للغلبة.... وقال له على مسمع من الناس.... يا أمير المؤمنين... نفدت نبالنا... وكلت سيوفنا.... وفصلت أسنة رماحنا... فارجع بنا إلى مقرنا لنستعد بأحسن عدتنا... ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا... فإنه أوفى لنا على عدونا... ولم يكن الرجل مخلصاً في قوله... بل كان يرمى إلى هدف خبيث... فالناس الآن وبعد القضاء على الخوارج على رأي رجل واحد... وكانوا من التراب والقوة بحيث لو توجهوا إلى معسكر الفتنة بالشام لأخمدوه.... ولاستتب الأمر لعلي، ولكنها إرادة الله...

لقد رجع الناس إلى النخيلة وعسكروا بها وأمرهم عليّ أن يلمزوا عسكرهم وأن يوطنوا أنفسهم على الجهاد... وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم... حتى يسيروا إلى عدوهم... لكن الجنود تسللوا من معسكرهم... ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم... وأيقن علي أن القوم مارقون من يده... ولا طاعة له عليهم إذا دعاهم بعدها للقتال....

١٢. الأمر الواقع!..

وبينما تفرق الناس من حول على هنا... نجد أن معاوية قد علا نجمه هناك بين قومه... وأعانه طلاب المنافع عامدين... وأعانه الخوارج غير عامدين... فحاربوا عليّاً ولم يحاربوه... وطلبوا التوبة من عليّ ولم يطلبوها منه... واستمر معاوية في إنفاذ البعوث والسرايا إلى كل موضع... فلم تنقض سنتان حتى كانت معه مصر والمدينة ومكة... وبقي عليّ في أرض الكوفة بائساً منعزلاً عن الناس.. يتمنى الموت كما قال في بعض خطبه... وانتهى بقبول المهادنة بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق ومعاوية الشام... ويكفأ السيف عن هذه الأمة فلا نزاع ولا قتال.

وقتل الإمام

.... واكتملت المأساة...

لقد اجتمع ثلاثة نفر وهم... عبد الرحمن بن ملجم، والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي... والثلاثة من غلاة الخوارج الموتورين، الذين أعماهم الحقد وحجب عنهم نور البصيرة التعصب الأعمى... فتذاكروا القتلى من رفاقهم، وتذاكروا القتلى من المسلمين عامة... وألقوا وزر هذه الدماء كلها على ثلاثة من الكفار - أو أئمة الضلالة في رأيهم وهم علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص...

فقال ابن ملجم: أنا أكفيكم علي بن أبي طالب...

وقال البرك: أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان...

وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص...

ولم يكن الدافع الديني خافياً في مثل هذه الأمور... فأحدهم وهو المتهوس عبد الرحمن بن ملجم كان يحمل في صدره ضغينة الثأر والانتقام، بالإضافة إلى حافز الغرام الظامئ الذي لا يرويه إلا دم ذلك الشهيد الكريم...

فقد كان ابن ملجم يحب فتاة من تيم الرباب... قتل أبوها وأخوها وبعض أقاربها في معركة الخوارج... وكانت توصف بالجمال الفائق والشكيمة القوية... وتدين بمذهب قومها فوق ما في جوانحها من لوعة الحزن على ذوبها... فلما خطبها ابن ملجم كان مهرها هو قتل علي ولم ترضى به زوجاً إلا أن يشفي لوعتها...

يقول لها ابن ملجم: وما يشفيك؟...

قالت: ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة - مغنية - وقتل علي بن أبي طالب!!

فوعدها خيراً (شراً!!)...

وتحدث المفاجأة والمصادفة العجيبة...

يخرج الثلاثة متواعدين إلى ليلة واحدة... ليقتل كل منهم صاحبه...

فأما عمرو بن العاص... فقد اشتكى وجع بطنه فلم يخرج تلك الليلة من بيتها!!... وأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلي بالناس... فضربه عمرو بن بكر وهو يحسبه عمراً... فقتله... فقال عمرو بن العاص: أردتني وأراد الله خارجة... وأمر بقتله.

أما معاوية... فضربه البرك بن عبد الله وقد خرج الغداة للصلاة... فوقعت الضربة على أليته... وقيل: إن الطعنة مسمومة لا يشفيها إلا الكي بالنار أو شراب يمنع النسل... فجزع من النار... ورضى بانقطاع النسل... وهو يقول: في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني... وأمر بالرجل فقتل لحينه..

وأما علي... فلم يخطئه ابن ملجم... فضربه في جبينه بسيف مسموم وهو خارج للصلاة... فمات بعد أيام... ويظل ﷺ حتى آخر لحظة متمسكاً بمبادئ العفو والصفح مع ألد أعدائه... فيحذر أولياء دمه من المثلة... ويقول لهم: يا بني

عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين... تقولون: قتل أمير المؤمنين... قتل أمير المؤمنين.. ألا لا يقتلن أحد إلا قاتلي!!.. انظر يا حسن إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة... ولا تمثل بالرجل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إياكم والمثلة.... ولو أنها بالكلب العقور"!!!...

ويطوي التاريخ صفحة ذهبية... كتب فيها بأحرف من نور أنبل المعاني وأسمى المثل... وموته ﷺ... ودع الناس فقيها ضليعاً... وعالمأ ورعاً.. ومجاهداً سباقاً.. وفارساً مغواراً... وما أروع القائل معلقاً على هذه الخاتمة:

إنها خاتمة فاجعة تصور لنا شيئاً كما تصوره البيعة كلها من قبل ابتدائها إلى ما بعد انتهائها... وذلك هو النسيج الإنساني النابض الذي يتخلل حياة علي... فما من حادثة من حوادث هذه الحياة النبيلة إلا وهي معرض حافل للعواطف الإنسانية برمتها... تلتقي فيه عوامل النخوة والشجاعة والوفاء والإيمان والسماحة... وتشترك فيه مطامع الناس.. وأشواقهم وظواهرهم وخفاياهم.. ذلك الاشتباك الذي يخلقه الشعراء خلقاً في القصص والملاحم... فلا يحكمونه بعض إحكام الواقع الملموس في سيرة الإمام..

وهذه مزية عليّ بين خلفاء الإسلام قاطبة... ينفرد بها لأنه انفرد بمثال من النفوس ومثال من العصور ومثال من العوارض الفردية والاجتماعية تؤلفه المصادفات في الأجيال الطوال.. ولا تحسن أن تؤلفه بمشيئتها في كل جيل... تلك حياة حي... ومصرع شهيد....

ويختتم عليّ حياته الحافلة بهذه الوصية الكريمة يوصي بها ولديه... فيقول: أوصيكمما بتقوى الله... وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكمما... ولا تبكيا عن شيء زوي عنكما.. وقولا الحق وارحما اليتيم وأغثا الملهوف وأصغيا للآخرة... وكونا للظالم خصماً وللمظلوم ناصراً... أعمالاً بما في الكتاب ولا تأخذكما في الله لومة لائم... ثم انظر إلى محمد ابن الحنفية فقال: هل حفظت ما أوصيت به أخويك؟

قال: نعم... فقال: إني أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك، فاتبع أمرهما ولا تقطع أمراً دونهما... وما زال يوصيهم بمحاسن الأخلاق والتقوى.. وما زال يقول: لا إله إلا الله... حتى قبض صبيحة يوم الأحد ١٧ رمضان سنة ٤٠ هجرية بعد أن بلغ من العمر ثلاثاً وستين سنة... وكانت خلافته ﷺ خمس سنوات إلا ثلاثة أشهر.



بيت علي....

تزوج علي بن أبي طالب:

- ١- فاطمة بنت رسول الله ﷺ... وهي أول زوجاته ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده... وأنجب منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى، وهي زوج عمر بن الخطاب.
 - ٢- أم البنين بنت حزام من بني عامر بن كلاب... ولدت له العباس وجعفر وعبد الله وعثمان.
 - ٣- ليلى بنت مسعود التميمية... ولدت له عبد الله وأبا بكر.
 - ٤- أسماء بنت عميس الحثعمية... ولدت له يحيى ومحمد الأصغر.
 - ٥- الصهباء بنت ربيعة من بين جشم بن بكر... وهي أم ولد من سبي تغلب.... ولدت له عمر ورقية.
 - ٦- أمامة بنت أبي العاص بن الربيع وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ... ولدت له محمد الأوسط.
 - ٧- خولة بنت جعفر الحنفية... ولدت له محمد الشهير بابن الحنفية.
 - ٨- أم سعيد بنت عروة بن مسعود... ولدت له أم الحسين ورملة الكبرى.
- وكان له بنات منهن... أم هانئ، وميمونة، وزينب الصغرى، ورملة الصغرى، وأم كلثوم، وفاطمة، وأمامة، وخديجة، وأم الكرام، وأم سلمة، وأم جعفر، وجمانة، ونفيسة، أمهاتهن أمهات أولاد شتى.
- وكان النسل من ولده الخمسة: الحسن، والحسين، ومحمد بن الحنفية، والعباس، وعمر رضي الله عنهما جميعاً...
- ورضي الله عن علي... أمير المؤمنين... ورابع الراشدين... والتلميذ الأول في مدرسة النبوة.
- ورضي الله عن هذا الجيل المتفرد العظيم...



في زهد الإمام وسياسته

زهد عليّ من زهد عمر... راشدي من راشدي... وكلاهما عن رسول الله ﷺ ملتصقا!!
وكما كان عمر مثلاً أعلى في الزهد... كان علي كذلك... والفرق بين سياسة الرجلين: أن الأول كان يحكم أمثال علي... أما الثاني فكان يحكم أمثال الخوارج، وتلك سنة الله في حركة الحياة!!
وليس زهد عليّ لوناً من الاشتراكية، فهذه الكلمة النابية التي تمتد جذورها إلى مضمون فلسفي مادي.. وإلى نظرة جماعية تسحق الفرد، وتمكن طبقة من "أثرياء الاشتراكية" من السطو على مقدرات الشعب... باسم الشعب... ومن قتل الشعب.. باسم الشعب... وإفقار الشعب وإذلاله.. باسم الشعب!!
هذه الكلمة المستحدثة لم يكن يعرفها هذا الجيل... ولا يجوز إسقاطها على أعماله... لأن تكاملية الإسلام لا تسمح بهذا التشقية!!

ولهذا... فليس صحيحاً لا منهجياً ولا علمياً... ولا تاريخياً... ولا إسلامياً ما قاله (خليل الهنداوي) ^(١): "وعلي أول من ظهرت عليه آداب الاشتراكية في الإسلام روحاً وواقعاً، وقد كانت مثل هذه الاشتراكية سائدة في زمن خلافة الصديق وعمر.. ولما جاء عثمان.. وهو تاجر بطبعه.. بدأ نظام الخلافة يبتعد عن الروح الاشتراكية، ويميز التملك على مدى واسع، وتعطي فيه القطاعات الفخمة، وتنفق الأموال على سعة، لكن علياً وما أشرب من روح الإسلام وما أنشئت عليه نفسه من زهد وورع، واستخفاف بالدنيا، عاد إلى الأخذ بهذه الاشتراكية، القائمة على ترويض النفس عليها.. لا على أنها نظام يشبه أنظمة الاشتراكية الحديثة".

فهذا الكلام مرفوض جملة وتفصيلاً، حتى مع التحفظ الأخير الذي ذكره الكاتب، وكما لا يجوز أن يقال: إن الإسلام هو المسيحية لأنهما يثتان أو يشتركان في الحث على الصدق والأمانة والحب والرحمة...
كما لا يجوز هذا، فإنه لا يجوز أن يقال: إن الإسلام دين الاشتراكية وإن المسلمين اشتراكيون.. فما عمل علي ولا عمر ولا أبو بكر ما عملوا خضوعاً لنزعة فلسفية... أو نظرة مادية... أو نظرة اجتماعية... وإنما عملوه.. أولاً وأخيراً.. للإسلام!!

وأدلة الزهد في حياة عليّ كثيرة.. بحيث تصلح كل مواقف حياته دليلاً عليها..
وكما عاش أيام مكة وأيام العصر النبوي في المدينة حياة الزهد التي كانت سمة المجتمع بأسره... في فترة بناء الحضارة الإسلامية، كذلك عاش حياة الزهد وهو خليفة ولا فرق... لأن المبدأ لا يتجزأ!!
وكم كانت فاطمة زوجته.. رضي الله عنها.. وهي ابنة نبي الأمة.. عليه الصلاة والسلام.. كم كانت تتعب من مظاهر الفاقة.. وتطلب توفير الحد الأدنى من الحياة "وليس مجتمع الرفاهية"، لكنها كانت تواجه بأبيها (عليه السلام) وبزوجها ﷺ يذكران لها ما عند الله في الآخرة... وأن ذلك خير وأبقى... فتصبر هي الآخر!!

(١) مع الإمام علي، ص: ١٠٦.

وأما حياة عليّ في ظلال الخلافة، وهي تلك الحياة الزاهدة العفة عن أموال المسلمين، الحريصة عليها... فتؤديها هذه اللقطات الوجيزة التي نقتبسها . كمثال . من فيض لا حصر له من صور زهده عليه السلام...

لقد كان وهو أمير المؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيدها، وكان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير، فيقول: "لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم"!!

ويروي النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال: دخلت على "علي" عليه السلام فإذا بين يديه لبن حامض آذني حموضته وكسرة يابسة... فقلت: يا أمير المؤمنين، أتأكل مثل هذا؟ فقال لي: يا أبا الجنوب، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل أيبس من هذا ويلبس أحسن من هذا . وأشار إلى ثيابه . فإن لم أخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به...!!



كان أخوه عقيل كثير الأولاد... غاية ما يكون فقراً وعوزاً... وقد أتى يوماً إلى أخيه عليّ.. خليفة المسلمين يطلب إليه أن يعيره من بيت المال ما يسد به رمق أولاده ويكفيهم الجوع القاتل.. لكنّ عليّاً رده خائباً.. بل أدنى حديدة ملتهبة من جسمه... فلما ضج عقيل منها... قال عليّ له: "ثكلتك الثواكل يا عقيل!! أثنى من حديدة أحماها إنسانها للعب.. وتجري على نار سجرها جبارها لغضبه.. أثنى من أذى، ولا أثنى من لظى"...

وعن مجمع التميمي أن عليّاً قسم ما في بيت المال بين المسلمين، ثم أمر به فكس، ثم صلى فيه رجاء أن يشهد له المكان يوم القيامة!! وأخرج أبو نعيم في الحلية عن عليّ بن أرقم أنه رأى عليّاً يبيع سيفاً له في السوق، ويقول: من يشتري مني هذا السيف؟ فو الذي فلق الحبة لطالما كشفت به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو كان عندي ثمن إزار ما بعته!!

وكان علي يقسم ويقول:

والله الذي لا إله إلا هو ما رزئت من فيئكم إلا هذه، وأخرج قارورة من كم قميصه، فقال أهداها إلي مولاي دهقان!! وصدق خامس الراشدين.. عمر بن عبد العزيز وهو من الأسرة الأموية التي تبغض عليّاً وتحتلق عليه السيئات، وتخفي ما توافر له من الحسنات حين يقول:

أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب...



أما ابنته فلها حكاية طريفة نترك ابن أبي رافع خازن بيت المال (وزير الخزانة) يحكيها كما وقعت:
يقول ابن أبي رافع:

"كنت على بيت مال عليّ بن أبي طالب وكاتبه، فكان في بيت ماله عقد لؤلؤ كان أصابه يوم البصرة، فأرسلت إليّ بنت علي فقالت لي: إنه قد بلغني أن في بيت مال أمير المؤمنين عقد لؤلؤ، وهو في يدك... وأنا أحب أن يعيرنيه أتجمل به في يوم الأضحى.. فأرسلته إليها: عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام يا بنت أمير المؤمنين؟ فقالت: نعم عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام... فدفعته إليها... وإذا أمير المؤمنين رآه عليها فعرفه، فقال لها: من أين جاء إليك هذا العقد؟ فقالت: استعترته من أبي رافع خازن بيت المال لأتزين به في العيد ثم أردته!! فبعث إليّ أمير المؤمنين فجئته، فقال لي: أتخون المسلمين يا ابن أبي رافع؟ فقلت: معاذ الله أن أخون المسلمين.

فقال: كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذي في بيت مال المسلمين بغير إذني ورضاي.
فقلت: يا أمير المؤمنين، إنها بنتك، وسألتني أن أعيره له تتزين به، فأعرتها إياه عارية مضمونة مردودة على أن ترده سالماً
إليّ بوضعه... فقال: رده من يومك وإياك أن تعود إلى مثلها فتنالك عقوبي!!
وبلغت مقالته ابنته، فقالت له: يا أمير المؤمنين أنا ابنتك وبضعة منك، فمن أحق بلبسه مني؟ فقال لها: يا بنت ابن أبي
طالب لا تذهبي بنفسك عن الحق!! أكل نساء المهاجرين والأنصار يتزين في مثل هذا العيد بمثل هذا؟ والله لو لم تأخذه
عارية مضمونة مردودة لكنت أول هاشمية قطعت يدها في الإسلام في سرقة...!!
أجل...

كان الزهد سياسة عليّ.. قبل الخلافة وبعدها.. وذلك لا يحتاج إلى دليل.
وعندما قتل رحمه الله لم يترك غير ستمائة درهم.. لا تساوي شيئاً... ورحم الله عليّاً... ولا نامت أعين المتاجرين
بالشعارات الجوفاء... ودعاة الفتنة والطائفية.



جوف علي... علم وحكمة...

علم عليّ من علم الإسلام... فهو من أفاقه الناس بالقرآن والسنة... ومنهما... ومن مدرسة النبوة، استمد ثقافته الدينية... والبلاغية... أيضاً..

والقرآن . كما يقول عليّ : "ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تغنى عجائبه ولا تكشف الظلمات إلا به"....
ولا غرابة . إذن . في أن يكون القرآن مصدر ثقافة (علي) الأول ولا غرابة إذن أن يقول (عليّ) في موضع آخر:
"تعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أحسن القصص"...

إنه العلم الحق المستقى من مصادر العلم الأصلية، أما علم الكهانة والنجوم فهو علم كذب ودجل وخرافة... ويحذر منه علي فيقول للناس: "إياكم وتعلم النجوم، إلا ما يهتدى به في بر أو بحر، فإنها تدعو إلى الكهانة والمنجم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر والكافر في النار... سيروا على اسم الله"...

وهذا القول ينفي عن علي . وحاشاه . أن ينسب إليه هذا الغناء الذي نسب إليه... عن علم الغيب... أو ما يسمى بكتاب "الجفر"، والذي تطبعه مطابع مشبوهة.. وتصور فيه عليًا قد رسم خريطة المستقبل... مع أن القرآن الكريم يحكي عن النبي ﷺ . وهو أفضل من علي . قوله:

{لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ} ^(١)... فمن أين لعلي . حاشاه . علم الغيب الذي ينسبونه إليه؟!!!

وإذا جاز أن عليًا حذر من فتنة ستقع، أو شيئاً من هذا القبيل، فليس ذلك إلا من باب ما يستطيع كل إنسان فطن ذكي مؤمن أن يتنبأ به!!

مصدقاً لقول النبي ﷺ "اتقوا فراسة المؤمن"، وقد تنبأ بعض الناس . ومنهم المؤرخ ابن حيان . بزوال ملك المسلمين في الأندلس قبل زواله بأربعة قرون... فهل كان ابن حيان المؤرخ يعلم الغيب؟ أم أنها مقدمات يستطيع المرء أن يتنبأ بنتائجها... كما يدل إهمال المذاكرة على الرسوب، وكما يدل العمل المتقن على النتيجة الطيبة.. وهكذا...!!



وفيما يروى عن ابن عباس أنه كان يقول: أعطي (علي) تسعة أعشار العلم والله لقد شاركهم في العشر الباقي.
وقال . أيضاً . إذا ثبت لنا الشيء عن (علي) لم نعدل إلى غيره... وحق (لعلي) لذلك أن يكون المفتي والمستشار الديني طيلة عهدي أبي بكر وعمر.. ثم في فترة ما قبل الفتنة في عهد عثمان...



وعندما زوج النبي الكريم ﷺ فاطمة لعلي...

(١) الأعراف: ١٨٨.

قال لها: (زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة).

وإنه لأول أصحابي إسلاماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حِلماً.

فكان كثرة علمه كانت من مؤهلاته في استحقاق فاطمة...

وعن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب كان رضي الله عنه يتعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن!! ويبدو أنه لهذا شاع قولهم: "معضلة ولا أبا حسن لها".

وكان علي يقول، ولا يملك غيره أن يقول مثل مقالته:

"سلوني سلوني عن كتاب الله تعالى فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أو بنهار".

فكانه رضي الله عنه كان يشعر بأن ما في صدره من علم إنما هو أمانة يجب أن تؤدي، وكان يريد أن يوضح لهم ما يمكن أن يكون محلاً لاجتهادهم واختلافهم عن رسول الله...



ويصح أن يقال: إن علياً رضي الله عنه أبو علم الكلام في الإسلام؛ لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه، كما قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة... أما الفقه، فإمامه الأكبر أبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد وجعفر بن محمد قرأ على أبيه وهكذا ينتهي الأمر إلى علي رضي الله عنه.

وقد قرأ مالك بن أنس على ربيعة، وقرأ ربيعة على عكرمة، وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس، وقرأ عبد الله بن عباس على "علي" رضي الله عنه... وقيل لابن عباس: أين علمك من علم ابن عمك؟ فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط!!



وعن ابن عباس وقد سأله الناس: أي رجل كان علياً؟

فقال: كان جوفه ممتلئاً حكمة وعلماً وبأساً ونجدة، ومع قرابته من رسول الله صلوات الله عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للناس: من أفتاكم بصوم عاشوراء؟ قالوا: علي... قالت: علي... أما أنه لأعلم الناس بالسنة...!!

وما نظنه مع كثرة علمه، وشديد حاجته، إلا وقد امتلأ ثقة بنفسه فقد كان ملاك الأمر في أخلاقه... أنه كان لا يتكلف إظهار شيء ولا يتكلف إخفاء شيء... ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه... فرمما أفرط الرجل في الثناء عليه وهو متهم عنده فلا يدعه حتى يعلن له طويته... ويقول: "أنا دون ما تقول... وفوق ما في نفسك"...!! وكانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة... وكان دائماً عند قوله:

(علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك.. على الكذب حيث ينفعك... وألا يكون في حديثك فضل على علمك.. وأن تتقي الله في حديث غيرك)!!



وما نظن علم (علي) إلا علم مسلم يتخذ العلم طريقه إلى الآخرة... يعمل بما يعلم... ولا يتكلف التعالم، ولا يتظاهر به،

ولا يعلن عنه!! وهو علم أيضاً يستمد أصوله من أوثق المصادر ويتحرك في دائرة الفكر الإسلامي... نصّاً وروحاً.

وقد ذكرنا براءته من علم الكهانة والسحر والإخبار بالمستقبل، وذكرنا رأيه في ذلك ﷺ.

ونحن نضيف هنا أن كثيراً من سجع الكهان الذي نسب إليه... إنما هو تحريف تأوله بعضهم واصطنعه له... باسم الحب والتقدير.. فما كان علي ﷺ (سجاعاً) يسجع كسجع الكهان... وبالتالي فإن كثيراً مما رُوي عنه في هذا الباب يحتاج

إلى تمحيص وتدقيق... سواء كان هذا الذي ورد عنه ورد في نهج البلاغة للشريف الرضي... أو في غيره...!!

وإنه لغريب ألا نسمع لعلي شيئاً من ذلك أيام الرسول ﷺ وأيام الراشدين الثلاثة... فلما كانت الأمور على النحو الذي كانت عليه... وظهرت طائفة تغالي في علم (علي) ظلماً... وتنسب إليه علماً فوق علم البشر كان سهلاً أن يبتزع بعضهم له الأقوال المزخرفة المزركشة... التي لم يعرفها جيل علي... والتي قضى عليها القرآن الكريم والحديث النبوي فيما

قضى عليه من صور التفيهق والتشدد والتعاضل.. والتكلف البغيض!!



ورحم الله علياً... المفترى عليه!!.

القاضي العادل... الذكي..

يعتبر تولي الإمارة والقضاء في الإسلام نهاية رحلة من العلم والدين والخبرة والثقة والبعد عن كل شبهة...

ولهذا استحق (علي) القضاء . والإمارة... بل استحق أن يكون رائداً في هذا الباب.

وأن له الأفضية صارت مثلاً... وهي تدل على قدم عال فريد في فقه الإسلام... وفقه حقائق الأشياء وأبعاد الأمور،

كما أن له وصايا في أسلوب الحكم أصبحت آثاراً خالدة في هذا الفن العملي الخطير...



وتكاد تجمع كتب السيرة الموثوق بها عليّ أن علياً كان ذا عقل قضائي نفاذ إلى المشاكل، وقد تجلّى ذلك منذ ولاه الرسول . عليه الصلاة والسلام . في حياته قضاء اليمن اعتماداً على كتاب الله وسنة نبيه، وعلى ما يتمتع به من عقل حصيف...

كما تجلّى ذلك في كتابه إلى (الأشتر النخعي) عامله على مصر... كما تدل على ذلك وصيته الأخرى لأحد عماله، والتي يقول فيها:

"أما بعد فقد شكّا دهاقين أهل بلدك منك غلظة وقسوة، واحتقاراً وجفوة، فلبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة، وداول لهم بين القسوة والرفقة، وأمزج لهم بين التقريب والإدناء، والإبعاد والإقصاء".

ويقول:

"واخلط الشدة بضغت من اللين، ورفق ما كان الرفق أرفق، واعتزم الشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة، واخفض للرعية جناحك، وألن لهم جانبك، وآس بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والتحية، حتى لا يطمع العظماء في حيفك، ولا يئأس الضعفاء من عدلك".



ومن أفضية (علي) الدالة على علو كعبه وتوفيقه وفطنته وفقهه لروح الإسلام ونصوصه... وفطنته . ما روى من أنه حين ذهب إلى اليمن عرضت عليه قضية أربعة وقعوا في حفرة حفرت ليصطاد فيها الأسد، وقد سقط أول الأمر رجل ثم تعلق بآخر فجره إليه، وتعلق الثاني بثالث، والثالث برابع وهجم عليهم الأسد... فماتوا جميعاً.

فتنازع أولياؤهم حتى كادوا يقتتلون، فقال عليّ: أنا أقضي بينكم، فإن رضيتم فهو القضاء، وإلا حجزت بينكم حتى تأتوا رسول الله (عليه الصلاة والسلام) ليقضي بينكم، ثم أمرهم أن يجمعوا من القبائل الذين حفروا البئر ربع الدية، وثلثها، ونصفها، ودية كاملة، الدية ربع للأول؛ لأنه أهلك من فوقه، وللذي يليه ثلثها لأنه أهلك من فوقه، وللثالث النصف لأنه أهلك من فوقه (وهو واحد) وللأخير دية كاملة لأنه لم يهلك أحداً... فأبو أن يرضوا فأتوا رسول الله ﷺ فلقوه عند مقام إبراهيم فقصوا عليه القصة...

فأجاز قضاء عليّ...!!



ومن أفضيته التي تدل على قوة إدراكه وسرعة فهمه لدقائق مسائل العلم... ما قيل من أنه جاءته أخت رجل مات وقالت له: مات أخي عن ستمائة دينار، فلم أرث منها إلا ديناراً واحداً... فقال لها: لعل أخاك ترك زوجة وابنتين وأماً، واثني عشر أخاً.. وأنت؟

. فقلت نعم.

. قال: معك حَقُّك من الميراث الذي خصك الله به!!



وجاء رجل إلى معاوية رضي الله عنه، فسأله عن مسألة، فقال: سل عنها علي بن أبي طالب فهو أعلم. قال: يا أمير المؤمنين جوابك فيها أحب إلي من جواب علي... قال: بئسما قلت... لقد كرهت رجلاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزره بالعلم غزراً، ولقد قال له: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي!!"



هذه شهادة معاوي لعلي . رضي الله عنهما . وهي كلمة حق يقولها معاوية، على الرغم مما كان بينهما... خضوعاً منه للعدل وللحق { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا } ^(١)... بل إن معاوية يعنف الرجل لأنه يبغض علياً...

وكيف يبغض مسلم رجلاً جعله الرسول صلى الله عليه وسلم منه بمنزلة هارون من موسى؟! وبالطال... وعلى الرغم من الخلاف حول التصورات والأساليب مما أدى إلى ما أدى إليه بين علي ومعاوية... نعتقد أن "البغض" لم يكن أصل العلاقة بينهما...

وقد اختلف محمد بن أبي بكر مع أخته أم المؤمنين عائشة . رضي الله عنهما . كما اختلف كثير من الآباء مع الأبناء، وكثير من الأخوة مع بعضهم البعض.

وقد كان المسلمون . على كثرتهم . مقسمين بين علي ومعاوية... وكان أهل الشام مع معاوية، مقتنعين به وبآرائه عن يقين... كما أن أهل العراق ناصرُوا علياً عن يقين... مصحوب بنزعة بعضهم في الشقاق والخلاف!!

فكانت النتيجة لصالح معاوية في الدنيا... أما عند الله... فالمسلم ملزم بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الجبل العظيم... وملزم بالإصغاء لقول الله تعالى في كتابه الكريم في مثل هذه القضايا التي لا وضوح فيها... "تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ" ^(٢).

إن هذا هو القضاء العدل في هذه القضية الشائكة، وعلى المسلم الالتزام بقضاء القرآن...

(١) المائدة: ٧.

(٢) البقرة: ١٣٤.

وبعد...

فإن القول في أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) سيظل ممتداً في التاريخ؛ لأنه قبس من نور الإسلام الخالد... ونور النبوة الوضيء الذي لا ينطفئ وهجه... ولا يخفت شعاعه... وما علينا في نهاية الشوط الوجيز إلا أن ندع عليّاً عليه السلام، يقدم لنا بعض كلماته التي وردت عنه . نأخذها منه هدية الراشد الصالح للأمة التي نرجو أن تعود إلى رشدها... وتقتفي أثر هذا الجيل الفذ العظيم.. بدل أن تكون أمة بلا وزن... من الرعاع والهمج الذين يتبعون كل مسيخ دجال.



إن عليّاً يقول لنا:

. الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعا ع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح... لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق.
. العلم خير من المال.
. العلم يحرسك وأنت تحرس المال.
. العلم يكسب العالم الطاعة في حياته وجميل الأحداث بعد موته.
. لا تخلو الأرض من قائمين لله بحجة، لئلا تبطل حجج الله وبيناته... أولئك هم الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤديها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم.. هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فاستلأنوا ما استوعر منه المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالنظر الأعلى... أولئك خلفاء الله في دنياه، ودعائه إلى دينه...!!
. احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك.
. لا تظن بكلمة خرجت من أحد سوء، وأنت تجد لها في الخير محتملاً.
. أن أفضل الزهد هو إخفاء الزهد.
. إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه.
. احذروا صولة الكريم إذا جاع... واللئيم إذا شبع.



. يا دنيا... إليك عني.

إليّ تعرضت؟ أم إليّ تشوفت؟ هيهات!!

غري غيري... لا حاجة لي فيك!!

قد طلقته ثلاثة لا رجعة فيها، فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير، آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظم المورد.

- . خلاصة رأي الإمام في المرأة أنها شر كلها، وشر ما فيها أنه لا بد منها...
- . خيار خصال النساء شرار خصال الرجال: الزهو والجبن والبخل... فإذا كانت المرأة زهوة لم تمكن من نفسها، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها، وإن كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها...
- . نفس المرء خطاه إلى أجله...
- . المرء مخبوء تحت لسانه...
- . المرء مهاب حتى يتكلم...
- . من لان عوده كثف أغصانه...
- . كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع....

الفهرس

الإهداء.....	٥
توطئة.....	٦
علي ... المفترى عليه.....	٦
في بيت النبوة.....	٩
أول المسلمين.....	١١
نموذج لتربية مُجَدِّ (عليه الصلاة والسلام):.....	١٣
لولا علي لهلك عمر!!.....	٢١
بين علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف.....	٢٦
علي في خلافة عثمان.....	٢٩
عثمان بن عفان يدافع عن نفسه في خطبة جامعة.....	٣٥
كيف صارت الخلافة لعلي؟.....	٣٩
وبدأ الصراع ضد عليّ.....	٤٢
لماذا رفض علي إقرار ولاية عثمان.....	٤٤
على أعمالهم وأجل إقامة الحد على قتلة عثمان؟.....	٤٤
كيف صارت الأحداث بعد تولية عليّ الخلافة؟.....	٤٦
الخوارج.....	٥٦
وقتل الإمام.....	٥٩
بيت عليّ.....	٦١
في زهد الإمام وسياسته.....	٦٢
جوف علي ... علم وحكمة.....	٦٥
القاضي العادل ... الذكي ..	٦٨
وبعد.....	٧٠